ثريا نافع

طقوس الزمن المحال

قصص قصيرة



طقوس الزمن المحال

قصص قصيرة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

ثريا نافع

طقوس الزمن المحال

قصص قصيرة



الكتاب : طقوس الزمن المحال
قصص قصيرة

الكاتب : ثريا نافع

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٣

رقم الإيداع : ٢٥٦١/ ٢٠٠٣
الترقيم الدولى ، I.S.B.N.977-291-441-7

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر

الإهداء

إلى أسرتى ؛

بهجة حياتى ونجومى الصاخبة

المزج الأول

الركض فى شرنقة الحلم

مسودة خطاب

لا أدرى ماذا أكتب ؟ ولكنى سأكتب ، ولا أريد أن تصم أذنيك عمّا سأرويه لك ؛ لأنك الوحيد الذى من أجله تركت قوافل الأعوام التى توالت والأحزان التى تراكمت وجعلتها خلفى بعد أن اعتقدت بأن طريق الوحدة هو الطريق الوحيد الذى سأمضى خلاله حتى الموت ، ولكن أخيراً بعثتك يد الله لترمم نفسى من مخاوفها وغربتها ، جئت فأورقت الياسمين في بقية العمر وأدخلتنى إلى منطقة تيارات عاصفة تجاذبتنى وأنا مازلت بعيون مفتوحة وضمير يقظ لأفترش وبدون مقاومة منى مياهك الدافئة لتصبح فجأة هاجساً لا يهدأ وسيداً لأمنيات كم تمنيت أن تتحقق .

سبقتنى فى العمر بأشهر معدودة ، لم يسبق لك الزواج من قبل، تركت سنين العمر تمضى وأنت غارق في بحور العلم والغربة حتى إذا أفقت فجأة وجدت نفسك بعيداً عن الوطن ووحيداً فقررت العودة .

كنت كلما رأيتك أجدك وقد أفسحت للأمل مكاناً فى نفسى ، استطعت بلطفك أن تحولنى إلى شظايا بين يديك لتتربع وبدون إذن منى على عرش ولائى الذى طال بلا وطن .. وسكنت عشقى ونزقى وفرحى وحزنى سنابل من نور لتحل ضيفاً فى بؤرة عينى وفى حالة استثناء فردية وغالية .

كنت أتعجل الصباح ليحملنى اليك ، ولأحتمى منك بك بعد أن اعتبرتك كنز السماء المخبأ لى ولى وحدى ، حكمنا العقل والعاطفة معاً لنتزوج وبسرعة قبل أن تتسرب أيامنا من بين أيدينا ،

وأيام كثيرة تلت لم أكن أصدق نفسي وتصورت بأنني في حلم لا ينقطع ، ولكن عندما أتحسس أنفاسك العطرة تتجول فوق وجهي ودفء يديك وهي تتحسسني ، أدرك بأن الحلم ما هو إلا حقيقة لأغيب فيك من جديد لتتواصل الأحاديث بيننا لا تنقطع ، أحداث أربعون عامًا نثرتها أمامك إلا ما كان يسوؤني ذكره لك ، احترمت مساحتي الخاصة ولم تحاول بأي شكل من الأشكال اختراقها ، وحاولت بعدها أن ألملم بقاياك التي تآمرت ضدي والتي جعلتني اجتاز بوابات العشق الحقيقي والذي لم أستشعره من قبل إلا من خلالك .

ثلاث سنوات مرت علينا انسابت خلالها عطور الترقب لطفل جميل يملأ علينا حياتنا المترعة بالدفء حتى منحنا الله أخيراً معجزته الرائعة ولدنا ضياء بعد أن كنت قد فقدت الأمل نظراً للمرحلة السنية المتأخرة التي كنت عليها آنذاك ، وقد اعتبرته منحة سخية خصني الله بها وحدي . ومضت بنا الأيام تلفنا بسحر المستقبل وغموضه فيتفتح لك قلبي أكثر وأكثر فأترك نفسي على سجيتها وأحتضنك بروحي قبل جسدي فأترك مياهك الدافئة الصاخبة تترقرق فوق جسدي لتبعثني من جديد مخلوقًا شفه الشوق فغدا حلمًا فتتوقف كل لحظاتي بين يديك .

أغدقنا على ضياء ما توفر لدينا من عواطف فأخفيناه في ظلمة ضلوعنا واستعذب كلانا أن يكون شمعة تحترق من أجله تتمايل شعلتها الملونة بآلاف الألوان كجناحي فراشة أثارتها شمس ربيع ليصبح الفضاء ملكًا لها وحدها وبلا حدود وهكذا ، ومن أجله تركت العمل حتى أتفرغ لرعايته وقد أفرحك هذا القرار من جانبي

كثيراً فغرقت في أعمالك الكثيرة وكنت أنتظر عودتك بقلب ملهوف وروح محلقة إلى السماء وأستجدى وجهك مع طول ساعات الانتظار فأرتدى أجمل أثوابى وأحبها إليك حتى نحلق سويًّا فى عالم سحرى لا يمتلك أسراره سوانا ، ويفز قلبى مع فتحة الباب فأستقبلك بقبلة طويلة حتى تتهيأ لمنحى الليل الطويل فى أحضانك التى لا أشبع منها فنغنى سويًّا لأجمل مواسم المطر .

وكما تعلم حبيبى وقبل زواجنا استحلفتك بأن لا تسألنى عن ماضٍ تعثرت فيه ولتتركنى أنثر ما يستحق أن أنثره أمامك من حكايا تسعدنى فقط بتذكرها . .

احترمت إرادتي ولم تسألنى ولو مرة لأحكى لك عن ماض اندثر ، حتى فى ليلة زواجنا الأولى تعاليت عن السؤال عندما أدركت بأنك لم تكن الرجل الأول فقد كان حبك الكبير الذى تكنه لى هو ربان سفينتك . ولكن الآن وبعدما حدث ما حدث هذا عذابى الذى اختزنته طويلاً وجراحى التى لا أبرأ منها إلا بك ، لذا سأقص عليك ما قد كان . .

كنت وكما علمت الابنة الوحيدة لوالدين كانا حديقتى الغناء التى أمرح فيها ، كانا من فضلهما على أن ربيانى على الصدق ومخافة الله حتى وصلت إلى السنة الأولى فى دراستى الجامعية فى إحدى كليات القمة ، كان من أصعب الاختبارات على نفسى فقدانهما سويًّا أثر حادث سيارة مريع ، وبين ليلة وضحاها وجدت نفسى وحيدة فى منزلنا الكبير والكبير جدًّا تصفق بين جدرانه رياح الخوف والوحدة ذكريات دافئة حميمة ضمتنى أنا وأروع مخلوقين (أمي وأبى رحمهما الله) ، أقاربنا القلائل انقطعوا عن

زيارتي تدريجيًّا فالكل لاه في حياته وتفاصيلها الدقيقة .

في تلك الفترة ظهر زميل لي في نفس الكلية يكبرني بعامين ، استطاع أن يحمي نفسي من وحدتها حتى وجدتني منساقة إليه دائمة الانشغال به ، وأقنعني بضرورة زواجنا وخاصة بأنني أمتلك كل شيء من شقة وسيارة ومبلغ جيد كوديعة باسمي كان الوالد قد وضعه في البنك قبل موته بسنوات قليلة بالإضافة إلى المعاش الحكومي والذي آل إليّ بطبيعة الحال لأنني الوريثة الوحيدة .

وقد وافقت سريعًا مع وعد مني لزكي، وهذا اسمه، بأن يكون زواجنا سرًّا حتى لا يحرمه والده من الميراث ومصروفه أيضًا ، وقد وعدني بأن يشهر زواجنا بمجرد التخرج وحصوله على عمل. كان اثنان من أصدقائه المقربين شاهدين على عقد زواجنا على سنة الله ورسوله على ورقة كتبها بخط يده زوجي ، وقد سلمني تلك الورقة حتى أحتفظ بحقوقي لديه وكما أفهمني يومها .

بالطبع قلة خبرتي في الحياة وخوفي من العيش بمفردي في منزلنا الكبير جعلني أتخيل السعادة المفقودة في ظل هذا الزواج ، ولكن ما حدث بعد ذلك كان الأشد مقتًا إلى نفسي حيث اكتشفت خطأ زواجي بتلك الطريقة المهينة لي هذا بالإضافة إلى أن زكي لم يكن يقضي في المنزل إلا أوقاتًا قليلة وعندما كان يذهب حاصدًا معه كل ما أمتلك من نقود تاركًا إياي بمفردي أجتر ذكرياتي التي كانت مع والديّ رحمهما الله مع بكاء متواصل على ما فعلته بنفسي .

كنت أخشاه كثيرًا فقد كان كثير الغضب وكان عندما يغضب يحطم كل ما تصل إليه يداه من ذكريات جميلة ضمتني في بيتنا

الهـادئ، وعنـدها أعطيـه كل مـا يريد صـاغـرة ولا حـيلة لـى غـيـر البكاء.

أصبـحت أستعذب الوحدة ولم أعد أخشاها كما قبل، وكم من مـرات عديدة أدعوا الله بعدم حـضـوره ، ساءت صحتى كـثيـراً وطالبتـه مرة بالطلاق فطاح فىّ ضربًا وركلاً وصراخًا ، تملكنى منه خوف شـديد فآليت على نفسى بعـدها أن لا أهتم سوى بـدراستى حتى أنتهى منها .

كنت ذات يوم فى الجامـعة فـشـعـرت بدوار شـديـد حـتى أغـمى علىّ، تحسنت بعد فترة قليلة من إسعافى وقررت العودة إلى البيت، فتحت الباب وكان صوت موسيقى شرقية يملأ المكان ، اتجهت إلى غرفة نومى حيث مصدر الصوت وأنا أقول فى نفسى ربما نسى زكى إغلاق المسجل قبل أن ينزل ولكن هالنى ما رأيت .

كـان زكى مـسـتلقـيًا عـاريًا على السـرير وبجـانبـه فتـاة عـارية تناثرت ملابسـهـما وأعقـاب سجـائر فوق الأرض وفنجانان فيـهـما بقايا قهوة تركية ، صرخـاتى ملئت المكان حتى تجمع الجيران حولى وحضرت الشـرطة ورجـال البـحث الجنـائى وفـجـأة تهت عن كل مـا حولى ، وعندما أفقت أرهقنى رجـال التـحقـيق بأسئلتـهم الكثيـرة وسبب وجـود زكى وصـديقـتـه فى منزلى ، وقد أظهـرت لـهم ورقة زواجنا السـرى وعدم معـرفتى عن تعـاطى زكى للأفـيون والذى كـان السبب فى قتله هو وصـديقـتـه عن طريق وضـعـه قطعة كـبيـرة فى القهوة .

انتهى التحقيق فى القضية وأخلى سبيلى لعدم معرفتى بما كان يفعله زكى فى غيابى عن البيت ، وابتعد مـا تبقى لى من صـديقات

وأصدقاء بفعل الفضيحة لأصبح من جديد داخل شرنقة الوحدة والخوف ، ولأول مرة ألجأ للصلاة وقلبى منكسر طالبة من ربى العفو والمغفرة، وبدأت أفكر بشكل آخر وخاصة بعد الفضيحة التى عانيت منها ونظرات الجيران والزملاء المستفزة لى ، وضعت إعلانًا فى الجريدة عن بيع منزلنا حتى وفقنى الله فى بيعه بمبلغ كبير وضعته فى البنك مباشرة وانتقلت إلى شقة صغيرة فى حى هادئ حتى أكمل نصف السنة المتبقية لى فى الجامعة، وبعدها حملت أوراقى ورحلت إلى مدينة الإسكندرية واشتريت منزلاً صغيراً يطل على البحر مباشرة، وتقدمت بأوراقى إلى الجامعة للحصول على الدكتوراه ، وهكذا كان فقد نذرت ما تبقى لى من أعوام سواء كانت طويلة أو قصيرة للعلم والعمل فقط ، منصبى وجمالى ووضعى المادى جعل الكثير من الرجال يتقرب منى محاولاً القفز من فوق جدران الشك والخوف التى وضعتها بينى وبين كل رجل، وهكذا وبحمد الله ورعايته استطعت أن أدفن الماضى خلف ظهرى ، حتى رأيتك أول مرة وأنا أوقع على قرار تعيينك فى البنك الذى أعمل فيه ، يومها دق قلبى بعنف ليعلنك أميراً وبدون إذن مسبق لأفاجأ بعيونك العسلية وهى ترقص فى كل لحظات حياتى ، وقد أدركت رغم سنواتى الأربعين بأننى مازلت تلك الصغيرة الشفافة مثل قطعة كريستال حادة كالشفرة فجئت أنت لتخفف من حدتى وتشكلنى من جديد، وعندما تمكن حبك من قلبى مرت حياتنا سويًا مثل بحر تعلوه نسمات هادئة ولا مجال فيه لتصارع الأمواج ، حتى كان يوم التقينا بصديق زكى والذى كان شاهداً على زواجنا بالصدفة لأنه انتقل للعمل معك فى نفس

البنك وفى نفس القسم وعندما رآنى لم يخفى فرحته ودهشته بعثوره على وسأل ببساطة : سلوى كيف الحال؟ أين أنت؟ لقد سألت عنك فى منزلكم القديم وقال الجيران لى بأنك انتقلت ولا يعلمون إلى أين. ارتسمت الدهشة فى عينيك وأنت تسأله من أين تعرف سلوى ؟ فرد: وكيف لى أن أنسى من كانت زوجة أعز صديق لى .

وجمت لفترة قصيرة واستأذنت منه بعد أن قلت له بأننى زوجتك .

خرجنا والصمت يلفنا.. لم تنطق بكلمة طوال الطريق ، وفى المنزل ولأول مرة تنام خارج غرفتنا ، وحاولت أن أتلمس دفئك فى ولدنا ضياء ولم يغمض لى جفن حتى الساعات الأولى من الفجر .

حبيبى محمود مر أكثر من شهرين على خروجك من المنزل ، وقد حاولت كثيراً أن أتحدث معك ولكنك تغلق أذنيك عن سماعى حتى علمت مؤخراً بأنك انتقلت من البنك لمكان لا أعلمه وقد عطف علىّ مديرى السابق بالبنك وجاءنى بعنوان عملك الجديد مع توصية منى إليه بأن تتسلم تلك الرسالة منه استلام اليد حتى أطمئن بأنها وصلت إليك فتقرأ اعتذارى ولتعلم بأن قطعتك الثمينة التى تركتها فى أحضانى مشتاقة إلى لمسة حنون منك وقلب يسامح ، فمازلت حبيبى أصحو كل يوم على خواء فى المكان والزمان ، ألعن أيامى التى أقاسى مرارتها فى بعدك عنى ، وحتى الهواء الآتى من البحر أمامى والذى كم تنسمناه سويًّا يعطى لتلك الوحدة التى أقاسيها طعمًا مرًّا ينفذ من القلب إلى الجرح سكينا صدئًا ليغيب وجوه من حولى بين المسامات المتعبة إلا

وجهك الحاني ، استحلفك بالله حبيبى والفجر حين يلج عينيك ويقتحم الليل قلبك بأن تتذكر أننى وولدك فى انتظارك وإلى الأبد فلا تنكأ جراحًا نامت منذ زمن طويل ولأن لأشواقى لك ثقلاً لا أحتمله فلا تجعلنى أتحسس الجرح داخلى كراقصة أسكرتها هموم اللحظة فماتت وهى على أعتاب الانعتاق .

حبيبى محمود ، لو مت حزنًا على بعدك فإننى المقتول الذى أسلم نفسه عن طيب خاطر إلى قاتله .

زوجتك المحبة

سميرة

نسخة لن أرسلها

صلابة ووضوح ونظرة نزيهة تخترقك لتحط هادئة عميقة بين ثنايا صدرك عندما تتجول بعينيك فوق الوجه الهادئ لمحمد فلا تملك إلا أن تميل له ، كان بدماثة خلقه وسماحته واجتهاده ومحبته لأهل الشارع الذى يقطن فيه مبعث فخر لكل من تعامل معه ، حيث ربطت المحبة الخالصة لوجه الله ما بينه وبينهم .

أما البنات فقد علقت كل واحدة منهن أحلامها فوق تصرفاته الشهمة وحلمن به فى غرفهن وفى وحدتهن .

بعد أن أنهى الثانوية اختير من قبل وزارة التعليم ليكون على رأس بعثة على نفقة الدولة لفرنسا ، وغاب بحكم الدراسة عن الأهل والخلان وتوالت السنون فتبعثرت أحلام البنات فيه وانسلت كل واحدة ليد زوج أطاح به القدر فى طريقها ، ولكنهن ما زلن يتذكرن محمد الممتلئ رجولة وشهامة والذى شغفن به عشقًا بريئًا طاهراً . .

وحدها نهاد ابنة الحاج أحمد الموظف البسيط التى ما انفكت عن التفكير فى الغائب الغالى مع وعد فيما بينها وبين نفسها بانتظاره ومهما طال .

كانت نهاد صغيرة برعمًا يتفتح على أفنانه ، مثلها مثل بنات الحى حلمت به ، حفظته عن ظهر قلب من حكايات والدته عنه والتى لم تنقطع أبداً مع دعواتها المتتالية بأن يعود إليها سالمًا ، وبحكم العلاقة بين العائلتين فتحت عينيها لتجد محمد قد افترش القلب والعقل ليصبح مقياس أهميتها وقيمتها الإنسانية .

عندما كانت تفكر فيه تشعر بالقلق على نحو مخيف فلا تستطيع النوم وكم التمست في وحدتها أحاديث أمه لكي تسترد هدوءها وتخفي قلقها وبصبر لا يعرف اليأس تقرر انتظاره لحين عودته من الخارج ..

كان هاجسًا ما يصدق إيمانها بأن محمد سيكون من نصيبها ، واعتبرت حبه سرها الخاص لها وحدها .. أكملت تعليمها والتحقت بالوظيفة التي كم تمنتها كمعيدة في كليتها (كلية الألسن) وأغلقت كل أبواب الحب التي شرعت أمامها من آخرين كانوا يرجون إكمال نصف دينهم مع حسناء المنطقة ، ولكن هيهات فالبعيد الغائب مازال يتجول في دمائها تتذكر نظراته الحنون وتركيزه في عينيها وهو يردد : كل السواد الذى بعينيك يذكرني بنار لا نهاية لها ، تهرب من عينيه وتتمنى لو تطول فترة إجازته بينهم .

والآن خمس سنوات مرت بعد أن تحقق الحلم بزواجها من محمد ومازال حبها له يتدفق سخيًا دافئًا .

أحب محمد نهاد ومنحها حكايات من السكر والعسل ..

ذات يوم قال لها : حبيبتي سوف نسافر إلى الإسكندرية لحضور حفل زواج أحمد صديقي .. استعدى

ردت عليه : أخيرًا وجد نصفه الثاني ، متى سنسافر ؟

- غدًا إن شاء الله ، أظن أنها فرصة لنستعيد ذكرى أيامنا الأولى والمثيرة .

غمزت نهاد بعينها لمحمد وهى تستمع إلى كلماته فقال لها : ألم أقل لك أكثر من مرة لا تشعلي النار فى جسدى بغمزك الجميل .

قال كلماته راشقًا نظراته عبر تفاصيل جسدها المشوق من الخلف وقد غادرت مكانها لتبدأ بترتيب بعض أغراض الرحلة ، خمس سنوات قضاها بجانبها مرت كلمح البصر ، لم ينغصها سوى زيارات متكررة للأطباء أملاً في طفل يملأ عليه أيامه ، ولكن إرادة الله لم تشأ ، حتى خبت أخيراً جذوة البحث فى نفسيهما وتعاهدا أن لا يذهبا إلى أى طبيب حتى يأذن المولى عز وجل ويهب لهما طفلاً ومتى شاء، فمضت حياتهما بعد ذلك سلسلة من عذوبة.

وصلا إلى المدينة المغسولة بماء السماء والمشرعة أبوابها أمام البحر الصاخب وهواؤه النقى البديع يغسل أرصفتها وفرحة الحياة تلقى بأشعتها فوق الوجوه .

حضرا الحفل فى نفس اليوم الذى وصلا فيه وقضيا ساعات طويلة وعادا فى ساعة متأخرة من الليل .

خلعت نهاد ملابسها وحانت منها التفاته إلى زوجها واقفًا على أعتاب الفجر وكأنه يستجدى نوره فى الشرفة ، شدتها وقفته المنتصبة كسهم لا يعرف الانحناء، وعادت بذاكرتها إلى يوم زفافها فأججت الذكريات رغبتها فى ضمه إلى صدرها وصعدت إلى السرير ونادت عليه :

محمد تعال بسرعة فالنوم على أبواب عينى .

لم يرد وكأنه كان غائبًا عن المكان ، ازداد ارتباكها لصمته لأنها كثيراً ما كانت تراه فى تلك الغيبوبة (الصمت) ، ولكنها أبداً لم تجرؤ على سؤاله عن سبب صمته المفاجئ فهى تشعر دائمًا بأنه وفى تلك اللحظات يغادر الزمان والمكان ؟

لقد تعلمت احترام صمت الآخرين ، ولكن محمد ليس بآخر فهو كل حياتها ، ولكنها دومًا تتذكر كلماته فى يوم زواجهما عندما طلب منها أن تكون هناك مساحة خاصة لكليهما ولا يتعدى عليها الآخر حتى تمضى حياتهما بسلام ، طالت وقفته فى مكانه بالشرفة حتى بدأ الفجر يتسلل ببطء جميلاً صافيًا باعثًا على الاطمئنان . .

تملكتها العاصفة التى تحبها فى نفسها عندما تكون بين أحضانه ، جمعت بقايا نفسها وقد بدأ النعاس يشل من حركتها وأمعنت النظر فى صمته وإلى هذا التألق النورانى من حوله وتصورته لها وحدها فوجدت متعة كبيرة فى ذلك وغفت فى سكون .

استيقظت على طرقات خفيفة على باب الحجرة ، ونظرت إلى الساعة بجانبها وتعجبت كيف ظلت وحتى هذا الوقت المتأخر فى السرير . .

انتفضت من السرير بقميصها الشفاف الرائق الخضرة والذى يكشف من جسدها الرخامى أكثر مما يخفى وهمست : من بالباب ؟

الإفطار سيدتى .

حسنًا . . اتركه خلف الباب .

اتجهت نهاد إلى الحمام لتغسل بقايا النوم من عينيها وتسمح للمياه الدافئة بالتنزه فوق تضاريس جسدها ، نظرت إلى نفسها فى المرآة وحمدت الله على أنه منحها تاجًا من الجمال . .

وعندما أنهت حمامها اتجهت إلى السرير مرة أخرى وحملت قلبها

ووضعته فى قبلة ساخنة فوق شفتى زوجها معلنة له بأن الإفطار جاهز .

ابتسم لقبلتها وأخذها بين أحضانه ، حاولت أن تفلت منه ولكن غرقت معه فى شوق مقيم ، وأخيراً تخلصت منه وهى تلملم آثار فيض المحبة المنسكبة فى أعماقها لهذا الرجل .

وللمرة الثانية عادت إلى الحمام لتستحم على عجل ، وعندما خرجت وجدت محمد مازال مختفياً تحت الأغطية فنادت بصوت شجى : حبيبى أيها الكسول ..

فرد متثاقلاً : أنهيت حمامك غاليتى ؟

- نعم حبيبى أسرع أنت أيضاً لأخذ حمامك لأنى جائعة جداً ..

- ولكن بعد تناول الإفطار سنعود إلى القاهرة ..

- ولكنك قلت بأننا سنقضى أسبوعاً هنا ! !

- بالأمس فى الحفل تقابلت وعميل مهم ولابد من الاجتماع به اليوم فى القاهرة ، إذا أحببت أن تبقى هنا مع صديقتك عفاف حتى أعود إليك لك كامل الحرية .

كانت نهاد متوهجة الوجنتين وقد تناثر شعرها المبلل حول وجهها بدون ترتيب ولكنه أحلى من أى ترتيب وقالت : لا أستطيع أن أتركك تذهب بمفردك والطريق طويل سأكون جاهزة حبيبى فى خلال نصف ساعة من الآن ..

- أنا آسف حبيبتى لقد أفسدت عليك فرحتك .

- فرحى معك يا فارس أيامى .

اغتسل محمد وخرج مسرعاً ، أنهيا إفطارهما وبدون أن يكسر أحدهما صمت المكان وبعد رحلة طويلة وصلا إلى المنزل استغرقت

الثلاث ساعات ، أحست نهاد بالتعب متكوراً في مكان ما من جسدها فقالت لمحمد : هل ستذهب الآن إلى الاجتماع أم ستنتظر حتى الغداء ؟

- لا يا حبيبتي .. سأذهب حالاً فقط سآخذ بعض الأوراق من المكتب وعندما أعود كوني مستعدة لأنك مدعوة على العشاء معي..

تعلقت نهاد في رقبته وغابا في قبلة طويلة أودعتها أشواق سنين لا تهدأ وقالت : سأنام قليلاً حتى أستعد لسهرة اليوم..

بعد خروجه خلعت نهاد ملابسها واتجهت إلى سريرها لتغفو قليلاً، ظلت تتقلب طويلاً وما بين اليقظة والنوم تذكرت ليلتها الأولى وكلماته الأولى لها ، وتعجبت من نفسها لماذا الآن وبعد مرور خمس سنوات تتذكر هذا الحديث ؟

كيف لم تحاول أن ترى ما بداخل أدراج مكتبه طوال كل تلك السنين؟

انتابها القلق من أفكارها وشملها الأرق وغاب النوم والتعب أيضاً، وتنبهت كل حواسها عندما اتجهت ولأول مرة وبإصرار إلى غرفة المكتب ، هاجمها صراع بين ما تريد أن تعلمه وبين وعدها الذى قطعته على نفسها ، ولكن أخيراً استيقظ فضول استثنائي داخلها وكأنها تبحث عن شيء غامض مثل محكوم عليه بالإعدام لم يتبق أمامه سوى ليلة واحدة ولكنه مصر على إيجاد تفسير لخوفه من المجهول ، هزمتها حماقة الإنسان عندما تفنى داخله أسئلة يجرى وراءها ليجدها فجأة مثل أطراف أخطبوط عظيم يلتف حول عنقه فيخنقه في غفلة منه ، وشعرت بارتعاشة وهي تنبش قاع

الدرج المظلم وكأنها مقبلة على نبش رفات ميت دفنت من آلاف السنين بعد أن انزلق الدرج أمام عينيها ، كان واضحًا أن محمد غلبه النسيان فتركه مفتوحًا ولأول مرة .

شعرت بحرقة أتربة الورق على عينيها ، تعثرت يدها في مجموعة صور، رفعتها بحذر أمام عينيها .. قربتها من مصدر الضوء أكثر فأكثر .. فتحت عينيها عن آخرهما .. حملت إحدى الصور واتجهت إلى المرآة ، قارنت بين نفسها وصاحبة الصورة .. أهالها أنها لم تجد فرقًا .. فتحت دفتراً صغيراً نسيته من الصدمة بين يديها لترى خط محمد وقد كتب في إحدى أوراقه (جيزيل يا حبيبتي مازلت تحتلين مكانك في قلبي كفراشة نادرة ، كم أحلم بك ، أحبك يا لؤلؤتي البيضاء).

بدا وجه نهاد ولأول مرة حزينًا كشاطئ انحسر البحر عنه ..

قبل سبع سنوات ماتت جيزيل في حادث انفجار قنبلة أمام مقهى في باريس ، كانا قد اتفقا على الزواج ، لم يتجاوز محنة فقدانها إلا عندما أدرك فجأة الشبه الكبير بينها وبين نهاد حتى تبقى حاضرة وإلى الأبد في أعماقه ، هذا ما أدركته من خلال أوراقه المبعثرة في صندوقه الأسود.

شعرت بالألم يغزوها مع الضوء الباهت في حجرة المكتب ، هذا الضوء الذى يطيل الزوايا ويعيد للجدران أبعادها الحقيقية فينير وبدون رحمة الخواء الذى امتلأت به فجأة.

وجالت المكان بذكرياتها لتذكره وهو يستجديها بأن تصبغ شعرها الذهبي إلى اللون البني الفاتح ، ملابسها وتلك الألوان التي كان يحب تقيدها بها ، إصراره على تعليمها اللغة الفرنسية

وتدريبها على نطق بعض الكلمات بطريقة معينة ، كلماته الحارة الحانية وهو يردد على مسمعها وفى أوقاتهما الحميمة : آه يا حبيبتى أنت تشبهين أجمل نساء الأرض .

لم تكن نهاد وفى غمرة حبها وفيضانه أن تشك ولو حتى بنسبة ضئيلة فى صدق كلمات محمد وحبه لها ، ولكن هاهى أخيراً وبعد أن تكشفت لها الحقيقة تصفق الباب خلفها حاملة جراح الخمس سنوات بأوهامها ورفضها الشديد لأن تكون فى حياة زوجها مجرد (نسخة) .

رسالة لن أبوح بها لأحد

" دفعني أشرف إلى السرير وارتمى بجانبى ، قاومته وعلى غفلة منه تملصت من بين يديه القويتين ، قام خلفى مسرعًا وأمسك بكتفى واعتصرني بشدة ، أحسست بدفء عواطفه وثورتها فتكورت كقطة بين أحضانه " .

تلك اللحظات من العذوبة أستشعرها كلما استحضرتها وكلما شدنى الحنين إلى أشرف الذى غيبته الأيام والسنون عن عينى ولكنه أبدًا لم يغب عن تسربه الدائم في دمائى ، كم من مرات عديدة فاقت كل تصوراتى أغرقنى صقيع الوحدة وعصيان هذا الكائن الصغير الذى يسكن أضلعى وينبض بعنف اشتياقًا لأيام الشقاوة والصبا .

خمسة عشر عامًا مضت على تلك اللحظات وكنزى الذى أحتفظ به بعيداً عن الأعين ما فتئ ينكأ جراحى كلما عنّ له أن ينكأها بنيران الذكريات التى لم تمت .

وكم جرت أدمعى أنهاراً وأنا أحاول أن أخفيها عن كل ما عداى وأن أتذكر نفسى، كم كنت فرحة على أعتاب الجامعة حين انتزعنى فجأة فارس من أحضان أسرتى رغم رفضى له ، ومحاولاتى الكثيرة للاتصال بحبيبى أشرف والتى فشلت حيث إنه وكما أخبرتنى أخته كان فى معسكر صيفى ولا تستطيع الاتصال به ، وهكذا وجدتنى وحيدة ولأول مرة أشعر بكونى بنتًا لا حول لها ولا قوة بعيدة بعد الأنجم عن تصور البشر فى اتخاذ أى قرار يمس حياتها بعد أن أصر والدى على زواجى المبكر وإكمال تعليمى فى

بيت زوجي ، لأنني كنت جميلة والجمال في رأيه يجب أن يكون تحت حماية رجل ثرى وعاقل غادرته قوافل الطيش والشباب .

ومنذ الليلة الأولى لم يستطع فارس على الرغم من أدبه المتناهى ودماثة خلقه ، ومعاملته الرقيقة لى كقطعة كريستال يخشى عليها من ضوء عينيه ، ومحاولة إرضائى بشتى الوسائل التى تجعل أى امرأة تتفاخر بحبه الخالص لها وبما يمتلك من سلطة وجاه حيث إنه كان من المهاجرين إلى أستراليا والذين بنوا حياتهم بالصبر والاجتهاد ، وعندما استقرت كل أحواله كان قرار اصطحاب زوجة من وطنه جميلة ، صغيرة بنت ناس ليكتمل لديه عقد النجاح على كل المستويات ، إلا أنه وللأسف وعلى الرغم من كل هذا ، لم يستطع أن يمس روحى ، فتعاملت معه ببرودة النصال .

سافرت أنا وهو إلى مكان عمله (أستراليا) وهناك أصر على أن أكمل تعليمى ، ساعدنى كثيراً على تجاوز كل المصاعب ، كان كل همه إسعادى وأولادنا الثلاثة (على ، حسن ، حسين) شمعاته المنيرة وكما كان يطلق عليهم والذين مَنَّ الله بهم علينا خلال سنوات خمس ..

أخذتنا الحياة ومسالكها الطويلة الرتيبة حتى وجدت فجأة أنه قد طالت غيبتى عن مصر بسبب رفض فارس الدائم لعودتنا بسبب أعماله الكثيرة وبحجة غياب من يمسك أعماله فى غيابه ، وحاولت أن أنزل بمفردى ولكنه دائمًا كان يرفض، كما أنه كان يفاجأنى بأبى وأمى كل عام تقريبًا فى زيارتنا، وهكذا تسقط حججى المتكررة فى أن أذهب لرؤيتهما وخاصة لأن أبى وأمى هما كل ما أملك فى الحياة من أقارب .

كنت ألاحظ وأنا فى قمة إصرارى على ذهابى إلى مصر أن فارس يلهينى بشتى الوسائل عن العودة وكأنه كان يعلم بأن روحى مازالت تجوب الطرقات هناك بحثًا عن الماضى الجميل ..

وعندما كانت تشتد العواصف بيني وبينه فلا أجد ملجأ سوى ذكرياتى فأبكيها كطفل أضاع أمه..

وتمر الأيام فى محاولة منى لترميم ما أفسدته المشاكل بينى وبينه ، لأجد نفسى منساقة إلى الرضوخ والرضا وأنا التى لم تتعود على الرفض فأعود إلى أولادى ألهو معهم ومن خلال براءتهم أتحسس الماضى المنغرس داخلى .. فيطل وجه أشرف الباسم عبر أيامى القاتمة فيلمع مثل بارق وأضحك فى سرى وأنا أتساءل : ترى هل يتذكرنى كما أذكره ؟ هل تحقق حلمه بأن يصبح طبيبًا ؟ وآلاف من «هل» تمطرنى بها نفسى عندما أستحضره أمامى لتتوالى الذكريات ، خاصة ذلك اليوم الفريد الذى قضيناه سويًّا فى حفلة زواج ابن خاله ، حيث قدمنى للجميع على أننى عروس المستقبل القريب ، يومها طارت الفرحة شعاعًا لتحط بهدوء على وجهى ليصبح أكثر جمالاً وصفاء واشراقًا ..

هل يا ترى يتذكر عندما حاول خاله مغافلته وجاء إلى حيث جلست ومد يده معرفًا نفسه مع انحناءة على يدى الممدودة إليه ليضع قبلة حوت كل شذرات الإعجاب وهو يقول :

- لابد أن هذا الجمال قد سقط من السماء .

وقبل أن يفيق سحب أشرف يدى من يده قائلاً : " لهذا الجمال صاحب يا خال " ضحكنا جميعًا ، أكملنا ليلتنا وكلانا كان نجمًا فى سماء الحفل ..

عدت يومها وأنا مصرة على البوح لأمي بما أكنه له ، ولكن الخوف شل لساني وخاصة عندما أخبرني والدى باختياره لفارس ..
كان والدى جدولاً من الحنان وخاصة لأنني كنت وحيدته ولكن في نفس الوقت شديد الصرامة وقد تعودت أمي وأنا على أخلاقه وكنا نخشى دائماً من معارضته ..
مرت السنوات بكل ما فيها من انكسارات وانتصارات حققها فارس فى عمله وأنا مازلت فى انتظار اللحظة التى يسمح لى فيها بالذهاب إلى ماء عيني مصر ، وخاصة أن أمي أصبحت وحيدة بعد موت ابى وقد طلبت منها أن تعيش معى فى أستراليا ولكنها رفضت ، حتى كان يوم تحدثت معها على الهاتف وإذا بى أعلم بأنها مريضة وتحتاج إلى رؤيتى ، وبسرعة حجز لى فارس على أول رحلة مصحوبة بدعواته ودعوات الأولاد بشفاء جدتهم الغالية ..
ربما من يطلع على ما فعلته سيتهمنى بالجنون والأنانية حيث أمرت السائق الذى أقلنى من المطار بأن يذهب بى إلى وسط البلد حيث كنت وأشرف نجوب الشوارع ليلاً ونهاراً .
كنت أنظر بحب ولهفة وأعجب من التغيرات التى طرأت على كل المباني ، مع كثرتها وارتفاعاتها ، أذهلتنى الفوضى فى المرور والزحام مع ضيق خلق الناس فى التعامل وتذكرت حينها كم كان الناس وعلى قلة ما يملكون فى الزمن البعيد الطيب إلا انه لم تكن هناك مشاكل .
لم تأخذنى تلك التغيرات بعيداً عن هدفى إذ إنى وصلت أخيراً وكما أخبرنى السائق إلى شارع سعد زغلول ، ولكن ما هذه التغيرات التى حدثت فى الشارع والتى بعثت الفوضى فى نفسى ،

تغيرات على مدى خمس عشرة سنة ، كنت أذكر شكل العمارة والتى ضاع من ذاكرتى رقمها فضاع قلبى بين طرقات متعرجة ولم أصل لنتيجة وأنا أدور مع السائق حتى أتعرف عليها ، عجبًا إن المكان هو المكان وأنا واثقة من ذلك ولكن ماذا حدث ؟

اعتدت وأشرف أن نستمع إلى أم كلثوم وهى تشدو بصوتها الشجى وتطرب من يجلسون على المقهى والذى إذا مررنا أمامها كنت أسمع من ينادى على أشرف وهو يقول : إزيك يا دكتور كان الناس تلك الأيام يتميزون بالحميمية والدفء ، أما الآن فلقد اخترق سمعى صوت عبثى نشاز يصرخ : " بينى وبينك خطوة ونص، لا بتسلم ولا بتبص" .

وعلى الجانب الأيمن من الشارع كانت هناك مكتبة تضج أرففها وتنوء من حمل أخبار القدماء وتاريخهم والشعراء وفلتاتهم، واليوم وللأسف مكانها بوتيك تتلألأ ألوان ملابسه الصاخبة وغير المتناسقة .

وهنا كانت ترقد فيلا عريقة التصميم أصبح مكانها عمارة متعددة الطوابق ، كتلة أسمنتية تفتقر إلى الحس المعمارى الجميل ، آخر سرق قطعة أرض فضاء كانت ملجأ للمساكين والمشردين أقام حولها سياجًا وجعلها موقف سيارات تؤجر بالساعة .

وهكذا ضاعت منى العمارة التى شهدت ميلاد حبى القديم الجديد وباءت محاولاتى الأولى فى العثور عليها بالفشل وأمرت السائق بعد مشقة البحث بالاتجاه إلى المعادى حيث نقيم على أن أعود للبحث عنك فيما بعد .

ولو سأل سائل ماذا تريدين منه ؟ لأجبت بسرعة : إن روحى معلقة به .

وعلى الرغم من إدراكى لما أنا عليه حيث إننى زوجة وأم إلا أننى أسيرة لذلك الماضى البعيد وسيده الغائب الحاضر دائمًا فى نفسى.

كنت كثيراً ما أشعر بتلامس روحينا فأغيب أنا وأنت عن الدنيا فى عناق لم أستشعره طوال سنواتى مع زوجى . حاولت اللجوء إلى الله كثيراً ليخلصنى من هذا الإحساس، ولكن بلا فائدة فقربى منه جعلنى أكثر شفافية لأراك متجولاً بين أوردتى .

وذات يوم وأنا مازلت فى بحثى عنك لفظنى تاكسى بالخطأ فى شارع قريب من شارعكم فقلت فى نفسى لعل نور حبى يرشدنى إليك .. ومضيت والحنين يلفنى أتطلع إلى واجهات العمارات والدكاكين لأدرك كم طالت غيبتى عن مصر حبيبتى ، حتى وجدتنى فجأة أمام مدخل عمارة يجلس أمامها رجل كست أوجاع السنين ومرارتها أخاديد وجهه العميقة ، ولربما أكون قد مررت أمامها مئات المرات فى بحثى عن أشرف ولكن ولأول مرة أتجرأ فأسأل عن اسمك .

ومن تلافيف ظلمة اليأس خرج النور من فم هذا الرجل عندما قال :

- الدكتور أشرف فى المستشفى دلوقت .

كلمات قليلة تلفظ بها العجوز المتألق خرجت فى خط مستقيم كقذيفة لتحط داخل قلبى ليرفرف من الفرحة .

وارتعش صوتى وأنا أسأله :

- طيب ممكن رقم تليفونه ؟

- أيوه دقيقة واحدة أجيبه لك ؟

ولأول مرة أشعر أن للفرح ملمسًا إنسانيًّا .

- طيب يا عم ...

- رمضان يا هانم .

ونادى العم رمضان على ولده محمد سائلاً إياه عن اسم مستشفى الدكتور أشرف ورقم التليفون .

- هى مستشفى للعيون بس مش فاكر اسمها ورقم التليفون ..

شكرتهما وأعطيت محمد حضنًا طويلاً غبت فيه قليلاً ، ومددت يدى لعم رمضان بمبلغ لاأدرى كم كان إلى الآن لأنى رأيت الدهشة وقد ارتسمت فى عينيه وكتبت رقم التليفون .

عدت حيث أمى ، أغمضت عينى بين أحضانها راجية من الله أن يبقيها لى وخاصة بأننى استطعت إقناعها بأن تأتى معى .

تسللت من أحضانها بعد أن أحسست بانتظام أنفاسها ودخولها إلى شرنقة النوم .. جلست أنظر إلى جهاز التليفون أستجدى شجاعتى ولكنى لم أستطع فأجلت الاتصال إلى الغد ..

وتذكرت صوته الذى كان يلج أعماقى ويتسرب دافئًا عندما كنت أتصل به ليرد قائلاً :

- دكتور أشرف .

فأرد قائلة : لسه بدرى أوى ..

فيضحك ضحكة صافية ويقول :

- الأيام حتشبتلك عندما أكون دكتورك حبيبتى .

بعث غبش الصباح الباكر الرجفة فى أوصالى خوفًا أن ينكرنى أشرف بعد هذا الغياب الطويل ، ولكنى استجمعت ما تبعثر من شجاعتى ، أدرت الرقم ، رن الجرس طويلاً قبل أن يصلنى صوت

ناعس قال :

- دكتور أشرف

- اشمعنى

- مين يافندم

- أشرف أنا زينة... هل نسيتني ؟

- آسف سيدتى هل أنت مريضة عندى ؟

- أشرف مش فاكرني فعلاً ولا بتهزر ..

- آسف يا هانم أنا مش فاكر حد بالاسم ده .

أغلق الخط ، وتسربت برودة في حدة سهم سام أطلقه ، وبدون أن يدرى ، من قوس غياب السنين ..

لم تجف دمعتي وكنت كالأسد الجريح الذى لاشيء يفعله سوى الدوران في قفصه في انتظار لمجهول طال انتظاره، وعندما أتاه باعدت بينهما السنون .

حاولت مراراً أن أُذكِّره بى وتعجبت عندما قال بحزم: يا هانم أنا مش عارف حضرتك عايزه مين أنت مخطئة .

هانت على نفسى وقررت أن أنسى خدعة السنين الطويلة والتى كم تعذبت بها .

وأنا على تلك الحال أفزعنى رنين الهاتف ورفعت السماعة لأسمع :

- زينه حبيبتي.. صباح الخير.

توقفت كلماتي ، أيها الآتى من الزمن الماضى ، الساكن بين أضلعى بدون أن أدرى ..

- زينه مالك.. أنا فارس.

- أيوه يا حبيبى .
- مالك يا حبيبتى ماما جرى لها حاجة؟
- لا يا فارس أنا بخير وماما بخير.
- طيب خدى الأولاد عاوزين يكلموكى.
- أيوه يا ماما أنا على.
- أهلاً حبيبى.
- وحشتينا إمتى حتيجى ؟

ومع تلك الأصوات الرفيعة والممتلئة رقة ورحمة انزاحت الذكريات التى كم تعذبت بها وخدعتنى كثيراً وقلت:

- ادينى بابا يا على.
- أيوه يا زينه .
- فارس أنا بحبك أوى.

كانت تلك أول مرة أنطق بتلك الكلمات لفارس بعد سنوات طويلة .

الصدمة

شعر نعيم بدفء الشمس الآتي من خلال الضباب على امتداد صفحة النيل وهو يجلس مرتخيًا أمام الخضرة الحانية مستمتعًا بصوت ضربات المياه الخفيفة على الحاجز الحجرى والفاصل بين الكازينو وضفة النهر.

كانت تلك المرة العاشرة التى يأتى فيها إلى هذا المكان صباحًا، لقد اعتاد أن يجلس معظم أيام الأسبوع هو وبعض من أصدقائه فى الفترة المسائية يثرثرن ويضحكون ثم يتفق جميعهم فى نهاية الجلسة بأن على نعيم أن يتزوج حتى لا يشعر بالوحدة وخاصة أنه الآن ولله الحمد قد أسس لجنياته من كل النواحى بفائض كبير من المال والأملاك، ولا داعى لأن يظل غائبًا فى ماض لن يعود عندما أحب إحداهن ولكن الموت سبقه وزفت إليه.

ذات يوم تصور أنه نسى في الكازينو ملفًا من ملفاته المهمة فاضطر للذهاب صباحًا ليسأل عنه، دخل المكان على عجل تلقى ترحيبًا من العاملين لسخائه معهم وقد ظنوا بأنه سيجلس لبعض الوقت، ولكنه شرح لهم عن سبب مجيئه، وبينما هو على هذه الحالة من الاضطراب والخوف من ضياع هذا الملف إذ مرت فتاة لم ير مثيلاً لجمالها الأخاذ، لاحقت عينه خطواتها حتى جلست على الطاولة المقابلة له تمامًا، لم يستطع إزاحة نظره عنها ووجد نفسه يشير للعامل أن يذهب ويسأل عن الملف بقية العاملين الذين كانوا يعملون فى نوبة المساء، وسحب كرسيًّا وطلب منه أن يحضر له فنجان قهوة وجلس. تأمل نعيم فى الكائنة الشفافة التى جلست

أمامه وقد أمسكت بكتاب بين يديها.

كانت قسماتها تتميز بجمال غامض ولكنه آسر، عندما تهادت تنشد طاولة فارغة لتجلس كانت ممشوقة القوام بلطف وألفة.

ترى من هي؟

هل هي طالبة في الجامعة؟

هل هي مرتبطة؟

ما هذا يا نعيم؟؟ ما الذى حدث لك؟ كأنك يا رجل لم تر نساء قبل ذلك؟؟

من بعد أول لقاء اعتاد نعيم أن يأتي صباحًا ليرى صاحبة العينين الخضراوين، حاول أكثر من مرة أن يتحدث إليها بدون فائدة، لقد حطت فى قلبه جمرة حبها بدون استئذان، لم تسعفه سنوات خبرته الطويلة فى الحياة والتعامل مع الناس في أن يكسر حاجز الخوف الذى سكنه ولا يدرى لماذا؟؟ كانت دائمًا بين يدها كتاب وأمامها فنجان قهوة يسعد بلثم شفتيها بين الحين والآخر. لقد عصفت به ثورة خضراء من عينين صوبتا سهمين فى اتجاهه فبعثر جمالها هدوءه وسكينته وترك فى صدره جمرة دأبت ومنذ أن رآها على التوهج.

باء بالفشل أكثر من مرة وهو يحاول أن يتعقبها، أصبحت كل هاجسه الذى لا يمل من الركون إليه، وقد امتلأ بها حتى النخاع بعد أن عبثت فى منامه ويقظته ليقرر أن يتعرف إليها ويطلبها للزواج بعد أن علم من أحد العاملين فى الكازينو بأنها غير متزوجة. كما أنه قد لاحظ أنها تأتى هنا دائمًا وتذهب مع سائقها وكما بدا له أحيانًا ومرات قليلة تغادر راجلة، أجزل العطاء

للجرسون ورجاه أن يتصل به عند تواجدها .

وذات يوم وهو يتملى فى هذا الكائن الجميل والذى احتل كل دقائق حياته ، لاحظ بأنها بدأت تتململ وبأنها على وشك المغيب من مكانها .

خرج خلفها مسرعًا وقد لاحظ أنها تنتظر تاكسى ، كما هو واضح .

تمتم لنفسه قائلاً : هيا يا نعيم تقدم ، لا تتراجع فلقد انتظرت طويلاً ، هيا يا رجل أين جرأتك وحماسك ؟ ثق فى نفسك فأنت جاهز من كل النواحي وحتي لو كانت مرتبطة فيكفيك بأنك عرفت الحقيقة ولا داعى إلى أن تطول المسألة أكثر من ذلك .

فجأة وجد نفسه أمامها وكله أمل ، اندلقت الكلمات من فمه متلاحقة وردد بسرعة قبل أن تبدى استهجانها .

اعذرينى يا هانم أنا . . . . .

وقبل أن يتفوه بكلمة أخرى صوبت إليه نظرات متعجبة جريئة أشعلت النيران فى أعماقه ، وبصوت لا يخلو من الثقة هادئ وجميل سألته :

نظامك إيه ؟ شقة مفروشة أم فى السيارة ؟ ! !

خطاب مسجل بعلم الوصول

أنثى . . . ولكن

مضت أحلام تخترق الأشجار الكثيفة بهدوء بعد أن أمرت سائقها أن يتركها أمام بوابة فيلا صديقتها الخارجية لتستمتع بالمشى عبر ممرات الحديقة بديعة التصميم والتى يعبق أريج أشجارها فى النسيم الليلى وصولاً إلى باب المدخل .

كانت سماح الصديقة الوحيدة التى ظلت على صداقتها لأحلام بعد إعتزالها ، وهكذا لم تستطع الإفلات من دعوتها لحفل عيد ميلادها .

وفجأة اخترق سكون الحديقة صوت لا تخطئه ، صوت فضحه الهدوء المترامى لتبدو كل كلمة وكأنها سهم لم يخطئ فريسته ، اختفت خلف الشجرة القريبة منها بعد أن سمعت الصوت يردد قائلاً لثلاثة كانوا يقفون معه : لما عرفت أنها مش ممكن تخلف اتجننت .

– يا راجل بعد الحب ده كله تطلقوا ، وبعدين فية حد عاقل يطلق الصاروخ أحلام إلا إذا كان مجنون .

– طيب كنت أعمل إيه وقد أصرت على الطلاق بعد أن جربنا أيضًا طفل الأنابيب وما نفعش كمان .

– برضه ما كانش لازم تطلقها ، كنت تتجوز واحدة عشان الخلف وخليك مع الجميل يكسب .

– يا سيدى أهو ده اللى حصل وربنا يسعدها .

– دى جلسة واحدة معاها تساوى قبيلة عيال ، ألا هى اختفت فين ؟

– سمعت انها سافرت وأقامت فى لندن .

- والله أنا عشت معاها أجمل أيامي لولا مشكلة الخلفة اللى كانت حتموت عشانها .

- دى كانت لما تطلع على المسرح عشان ترقص يا جدع تخلع قلوبنا كلنا .

- طيب تعرف تسكت بقى .

- ليه اسكت ، كنا ما بنتكلمش وانت متجوزها ، دلوقت وانت مالك .

أدركت فى هذا الفيض من الأكاذيب أن طليقها أحمد مازال مستسلما لأوهامه وأكاذيبه ، وتذكرت لحظتها كم كانت شهرتها كراقصة مصطفاة من قبل الرجال قبل أن تتزوج وبعد مئات المحاولات من جانبة لجعلها توافق عليه ، ولأنها أحبته فقد خلفت وراءها قوافل المحبين والمعجبين والطالبين لودها و تزوجته وقد هوسها بحبة وغيرته عليها لامتلاكها لكل نواصي الأنوثة ، شعر اسود يتهادى مسترسلاً لمنتصف ظهرها أضفى على ملامحها جاذبية وسحراً خلابًا ، عينان تشع منهما نار سوداء لا تنطفئ ، بشرة حريرية بيضاء ناعمة مثل طفل وليد ، جسد يفور برغبة معلنة لا حياء فيها وجمال لا يضاهى .

مضت أيامها هادئة رائقة ، إلا أن الطلاق قد وقع فجأة وبدون أية مقدمات وبعد عام واحد فقط ليبعث الفضول حيًا فى نفس كل من عرف قصة حبهما .

اختفت أحلام بعد الطلاق مباشرة إلى جهة غير معلومة ولكنها أعلمت صديقتها الوحيدة سماح بمكانها ، وقد طلبت منها ألا تعطى معلومات للصحافة عنها .

بعد فترة ليست بالقصيرة أخبرت أحلام صديقتها بأنها تزوجت وبأنها سعيدة جدًا فى حياتها الجديدة، وعندما أصرت سماح على حضورها لحفل عيد ميلادها لم تتصور أبدًا بأنها سترى أحمد مرة أخرى وتسمعه وهو يتباهى بأوهامه وأكاذيبه التى مازال يختلقها بلا خجل عنها .

وإذ تعاظمت لغة الغيظ وطفت فوق نفسها بعد سماعها لما دار بين أحمد وأصدقائه وخاصة عندما سأله أحدهم : ماجبتش المدام الجديدة نتعرف عليها ليه؟

فأجاب : أصلها تعبانة من الحمل ..

وكأن الأرض قد انشقت عن إحدى جنياتها خرجت أحلام من مكمنها خلف الأشجار وبخطوة واثقة شدت قامتها ليظهر انتفاخ بطنها أمام يد أحمد المدلاة بجانبه وقد غرست عينيها داخل عينيه وبصوت أرادته أن يصل الجميع : على فكرة يا سادة أنا الآن وكما هو واضح حامل فى الشهر السابع وهو ليس بالطبع حمل كاذب ، وإذا كنتم عاوزين تعرفوا سبب طلاقى فهو الآتى : على مدار عام بأكمله وللأسف لم يستطع الأستاذ أحمد ولو لمرة واحدة أن يثبت نفسه فى الفراش وعشان كده يا سادة كان من الأصلح أن يحدث الطلاق حتى لا أظل طوال حياتى أسيرة رغبة مزيفة وعجز دائم لا شفاء منه .

وعلى فكرة يا أحمد المدام مش ممكن تكون حامل منك .

ومازالــت... ترسل

أجبـرتهـا الإشـارة الحـمـراء على التـوقف بـسـيـارتهـا ، صـوت عبدالحليم ينساب بحميمية (لو كنت يوم آنساك إيه افتكر تانى) خرجت تنهيدة حارة من صدرها ودندنت بصوتها الناعس المشروخ (بالى وخيالى معاك وكل وجدانى) .

التفتت نغم فى أثناء انتظارها لفتح الإشارة إلى يمينها ، وفجأة اضطربت وقد ثبتت نظرها على الرجل الجالس خلف مقود السيارة التى بجانبها وهى تهمس لنفسها : ياالله ! أقسم أنه هو .

التـقت عـينا الرجل بعـينين مـحـدقـتـين مندهشـتـين وتداعت دهشـتـه عندما رأى سيدة جـميلة تفـتح شبـاكـهـا وبـلهـفـة تسـأله : حسام متى عدت ؟

كان من الواضح أنه سوء فهم وأن السيدة ربما تشبّه عليه ولكنها وبسرعة استردت : حسام تعالى ورايا .

اجتـاح الرجل فـضـول ، ممنيًـا النفس بمغامـرة جديدة وخـاصـة أن تلك المرأة التى دعتـه باسم حـسام صـاحبة وجـه مـلائكى . . . فلم لا يتبعها ؟

توقـفـت بـسـيـارتهـا بجـانب الطريق وتـرجلت منهـا وهو مـازال خلفها يتبعها بسيارته .

كـانت ممشـوقـة القـوام في رقـة ، مـشـيـتـهـا ثابتـة على الأرض ، رأسـهـا شـامخـة وأبهى ما يميزها عينان صـافيـتان من العـسل وشعـر يتماوج مع مشيتها بانسجام .

لم يدر لماذا لم يتـرجل من السـيـارة ، أهو الحـذر والتـوجس من

المجهول؟! ولكنه سمعها وهى تقف بجانب الشباك وتنحنى قليلاً ليتنفس فجأة عبيراً لا قدرة له على مقاومته وبصوت هادئ نادته قائلة: حمداً لله على سلامتك يا حسام . . .

- يا سيدتى أظن أنه قد اختلط عليك الأمر فأنا لست حسام . .

بدا عليها الاضطراب وتلعثمت ومرة أخرى سألته راجية : أأنت واثق بأنك لست حسام ؟

انزلقت ضحكة عالية من بين شفتى الرجل ورد قائلاً : إذا كانت واحدة جميلة مثلك سيدتى أرادت أن أكون أبو قردان فإننى سوف أسعد بذلك ولكنى وللأسف لست بحسام الذى أحسده من قلبى .

- أعتذر سيدى ولكنك تشبهه بالفعل !!!!

همت أن تعود إلى سيارتها وقد ارتسم حزن شفيف داخل عينيها ، نزل الرجل من سيارته ممسكا بيده كارتًا مدونًا عليه اسمه وعمله وهو يقول : يسعدنى سيدتى أن أكون معك بأى شكل ، وهاك أرقام هواتفى وإذا احتجت أى شىء فأنا فى الخدمة .

تناولت نغم الكارت من اليد الممدودة ذاهلة عما يحدث لها وقد اخذ منها حبها الغائب كل تعقل .

عاد إسماعيل إلى سيارته ونظره يتبعها وهى تغادر متمنيًا أن تتصل به وقد ادرك بأنها لم تخترع حجة للتعارف وكما هو واضح من شدة ذهولها . غادرته بعد أن تأسفت بشدة على هذا الخلط ولكنه مرة أخرى أكد لها سعادته بهذا الخطأ غير المتعمد .

وأمام صفحة النيل وقفت نغم بسيارتها لتغسل ماتعكر من صفو نفسها من جراء هذا الالتباس ، سحبت الكارت الجالس

بجانبها على الكرسى بهدوء وتأملت فيه (إسماعيل عبد الدايم) المدير العام ورئيس مجلس الإدارة فى شركة النجوم للاستيراد والتصدير . وضعت الكارت فى حقيبتها اليدوية واتجهت إلى منزلها .

طرقت باب شقة والديها قبل أن تمر على شقتها ، فتحت الخادمة ، سمعت زقزقة صوت طفلها وهو يصرخ فرحًا : ماما .. ماما . احتضنته بعنف ، تشممته ، وتحسسته وحملته واتجهت إلى أمها وقبلتها وقالت : ماما وحشتينى .

– أهلاً يا نغم لماذا تأخرت ؟؟

– زحمة طرق ليس إلا ... اسمحى لى ماما ساذهب لأزيل تعب يومى بحمام دافئ ثم أعود وأتناول الغداء معكم .

– ولما لا تأخذين حمامك هنا وتتناولين الغداء مرة واحدة وبعدها تذهبين إلى شقتك وترتاحى .

– لا يا أمى أفضل أن أستحم أولاً وفى مكانى .

قبل أن تسمع أى كلمة أخرى من أمها وضعت ولدها فى يد الخادمة وانسلت إلى شقتها واتجهت مباشرة إلى الحمام لتفتح المياه وتملأ الحوض استعداداً للاسترخاء والخروج ولو لفترة قصيرة من شرنقة أحزانها التى طالت ، خلعت ملابسها فى غرفة نومها ونظرت إلى جسدها المتناسق وقد لونته شمس الأصيل المتسللة بدون إذن إلى غرفة نومها وقد تمدد اللون الباهى فوق تضاريس جسدها الثلجى الذى ما تجرأ حسام الغائب منذ زمن أن يتمشى بيديه ولو للحظة منكراً على نفسه الاستمتاع المسروق ، وهفت روحها لوجوده معها فى تلك اللحظات .

عارية تماماً كفينوس هاربة من أعين آلهة العشق لتدغدغ جسدها المنهك من طول الانتظار وغطست في المياه الدافئة المعطرة بزهر الليمون ، أراحت رأسها على حافة الحوض وأغمضت عينيها ونظرت إلى التليفون القابع فوق الحوض باستكانة يناديها فمدت يدها إليه ودققت النظر في الكارت الصغير بين يديها ، انسابت ذكرياتها مع حسام لتشعر فجأة بأنه معها في تلك اللحظات الحميمة ليستكين الجسد المعذب بين حرارة الذكريات ونارها التي لم تهدأ ، وسمعته يردد على مسامعها : استعدى يا نغم بكرة عندنا مهرجان خطابة في الجامعة تنظمه الجماعة الاسلامية .

– ايه رأيك يا حسام نبعد احسن ، ثم من قال ان الاسلام يحتاج إلى مهرجان .

– انتى عارفة يا نغم أني شاعر الكلية وأديبها كما يطلق على الجميع وقد طلب مني رئيس الجماعة أن أكتب خطبة عن (أثر الاسلام في نشر الوعي بالجهاد) .

– ياحبيبى أنت الأول على دفعة هندسة وفاضل لك سنة واحدة فقط وننتهي من دراستك ومش عاوزة أى حاجة تشغلك عن هذا الأمر حتى نتزوج بسرعة .

– الكلام ده تقوليه لنفسك لأن اللغات عايزة مجهود كبير في الدراسة والاستيعاب وبعدين انت لسه في السنة الأولى ، ثم من قال بأني لست مستعجل وأكثر منك كمان .

– مادام حضرتك المدرس الذى أجده في وقت الحاجة ، اطمئن يا سيدى سأنجح وبتقدير كمان وسأتزوجك غصب عنك عندما تنتهي أنت ولست أنا لأني لن أستطيع أن أصبر أكثر من ذلك

وبعدها ستكون المدرس الإجبارى لسيادتى .

كان حسام وعائلته يقطنون فى عمارة اهل نغم ، بعد أن أعجبت والدته بالمنطقة وهدوئها وجمالها وقد اشتريا الشقة من أجل وحيدهما ليتزوج فيها ، وقد فرشاها وأقاما فيها إلى حين العثور له على عروس ثم يعودان إلى منزلهما القديم .

عاش حسام بين والديه ترفًا فائضًا ولكنه أبدًا لم يخذلهما فى أى شيء فهو دائمًا ما كان يحرز نتائج رائعة عبر كل دروب مراحل حياته .

ومن هنا بدأت العلاقة بين العائلتين ، وترعرعت شجرة الحب بين أفرادها لتنمو باسقة تظلل على نغم ووالديها وحسام ووالديه . وانساب الحب الصافى أيضا وجرى هادئًا قويًا بين حسام ونغم ، فتمت خطبتهما بفرح لحين انتهاء حسام من سنته الدراسية المتبقية لأنه جاهز من كل شيء ولا داعى لتأخير زواجه ولسوف اكمل دراستى بعد الزواج .

أبدًا لم يستغل حسام تلك الثقة الرائعة فى علاقته بنغم ، فكان إذا اجتمعا بمفردهما وكثيرًا ما كان يحدث ، يهدئ من اندفاعاتها المتكررة نحوه فيبعدها عن أحضانه بهدوء قائلاً لها : كلها سنة واحدة وتصبحين وتمسين فى أحضانى .

- يا برودك يا سيد طيب ما أنا فى حضنك دلوقت ليه تبعدنى عنك .

- يا نغم يا حبيبتى لا تنسى الثقة التى وضعها والدك ووالدى فينا سويًا .

- الصبر مفتاح الفرج ياحسام ، كلها سنة واحدة واطلع عينك

من الحب اللى حغرقك فيه .

ثم تكركر بضحكتها الصافية والتى كان يحبها كثيراً وتكمل حديثها قائلة ويدها فوق يده : أحمد الله من كل قلبى أن وهبنى إياك حبيبى .

فى يوم المهرجان ذهبت وحسام واستمعت إلى الخطبة الجميلة التى ألهبت قلوب الشباب وحناجرهم التى نادت بالجهاد لغسل العار الممتد فوق الأراضى المحتلة ، كان صوت الزميل الذى ألقى الخطبة حادًا وعميقًا فى آن فانسابت الخطبة بكلماتها الشعرية التى صاغها حسام وكانت من أجمل الخطب التى قيلت فى هذا اليوم .

عادا سويًا إلى المنزل فى وقت متاخر قليلاً ، توقفا على السلم أمام شقة نغم ، اعتصرها فى أحضانه وغابا فى قبلة من القلب إلى القلب حتى إذا سمعا جلبة بعض القطط وهى تتصارع لحفظ بقاءها ضحكا وودعها على أمل اللقاء صباحًا ليقلها إلى كليتها .

مرت أيامهما هادئة واعدة ، وفى السادس من أكتوبر يوم الاحتفال بالعبور قتل الرئيس السادات على يد الجماعات الإسلامية وكما نقلت وسائل الإعلام حينها ، لم يعيرا الأمر أهمية حتى ذلك اليوم الذى استيقظت فيه نغم ووالداها على أصوات عالية وأقدام تهرول على السلم صاعدة إلى حيث لا تعلم ، للوهلة الأولى ظنت بأنه ربما أحد الجيران قد أصيب بمكروه واستدعوا سيارة الاسعاف لنقله ، وتنبهت إلى الساعة فكانت الثالثة فجرا ، فتحت الباب مسرعة وهالها عدد رجال الشرطة المسلحين ببنادق صوبت إلى فراغ أمام شقتهم ، استطاعت أن تخترق الأجساد المتراصة بصعوبة حتى وصلت إلى شقة خطيبها حسام، ما كان

يحدث عقد لسانها ، قد هالها ما رأت من تبعثر كل محتويات الشقة فوق الأرض وكأن إعصاراً قد بلغ قمته الخامسة فيها فكانت النتيجة مارأته عيناها ، أدارت رأسها باحثة عن حسام حبيبها فرأت والدته جالسة فوق كرسي ، جرت ناحيتها وسط تهديدات لها بالمغادرة أو الاعتقال .

لم ترد واتجهت إلى والدته المتهالكة على كرسي ، أمسكت بيدها الباردة ووضعت أذنها على صدرها لتجد انأنهلا أثر لنفس داخله ، صرخت عاليًا ، ورأت والده وهو يحاول ان يبعد ايادى الجنود عن وحيده الذى كبلوه بقسوة واستعدوا للمغادرة .

جرت ناحيته صارخه وسألته من بين دموعها : ماذا فعلت يا حبيبى ؟

لم تنس نغم أبداً نظرته المتأنية الهادئة الواثقة وحرارة يده عندما لمستها وصوته الرزين وهو يقول لها : يقولون مقتل السادات ، خلى بالك من ماما وبابا حتى أعود .

بكت نغم واستعطفت الضابط قائلة : والله العظيم مالوش دعوه بأى حاجة صدقنى ، ولكن الضابط لم يجب وانسحب بكنزها الثمين مبتعداً .

انتقلت إلى رحمة الله أم حسام بعد يومين من اعتقاله ولحق بها والده بعد أسبوعين بعد أن أنهكه تنقله المضنى بين إدارة وأخرى ليعرف مكانه ، وما هى تهمته على وجه التحديد ؟؟

ولكن بلا فائدة .

فقدت نغم اهتمامها بكل شيء ، فقط سؤالها الدائم عن حسام والذى لم ينقطع أبداً ، علمت بأن تهمته كانت التحريض من

خلال خطبه الحماسية على قتل السادات وعلى الجهاد، كما قالوا لها وبعد عذاب، ولكنها أبداً لم تيأس فكانت كل يوم تبعث بخطاب استعطاف إلى إحدى الجهات الرسمية علها تعرف مكانه لتزوره ، لم تترك قسماً من أقسام البوليس فى القاهرة إلا وسألت فيه ، لم تترك مستشفى إلا وطرقتها ، مباحث أمن الدولة كانت ضيفة مستمرة بين ممراتها ، كم من مرة بكت للعمداء والعقداء عل أحدهم يعطف ويمرر لها معلومة عنه ولكن كل هذا لم يفدها شيئا ولم تعثر عليه .

كثيراً ما تساءلت : هل يتبخر الإنسان ويصبح نسياً منسيًّا هكذا فجأة ؟

ومن المسئول عن اولئك الذين ظلمتهم الأنظمة ؟

بعض من اقاربه المتناثرين هنا وهناك وسّطوا الكثير، ثم مع طول الوقت والمماطلة من الجهات الحكومية تسلل الملل إليهم بعد طول مشقة .

وحدها نغم التى لم تيأس ولم تمل السؤال : ترى أين وضعته الدولة ؟

وماهى تهمته تحديداً وهل فعلاً له اتصال بمن قتلوا السادات ؟

وهل حسام الذى أحبها بشغف وارتبطت به يغامر بمستقبلهما بيسر وقد كانا على موعد مع الفرح والسعادة بعد الانتهاء من عامه الدراسى الأخير ؟

وهل الإنسان فجأة يصبح كفقاعة تذوب فى الفضاء ؟

ألم تشفع له صفحاته العلمية الناصعة كأول الدفعة لكل عام من أعوامه السابقة ؟

وهكذا مرت عليها قوافل الأيام حزينة باهتة ، وفى كل لحظة تمر عليها تجتر أوقاتها الحميمة مع حسامها الغائب الحاضر ، وكم من مرة حاولت أن تتعود الحياة بدونه فما استطاعت ، وانقلبت حياتها رأساً على عقب وذبل الوجه القمرى وذاب الجسد الفائر بالانوثة فى انتظار لحظة الحصاد التى ما تصورتها قريبة حتى غابت إلى غير رجعة ، وهكذا مرت السنوات ثقيلة كئيبة .

انهت دراستها بلا حماس وتسلمت عملها كمترجمة فى إحدى المؤسسات الإعلامية وأيضاً بلاحماس وبقت على عهدها من سؤال مستمر عن حسام رافضة كل من يتقدم لطلب يدها ، حتى هبت العاصفة من والديها لتجبرها على اختيار زوج من الذين يتقدمون إليها ، وخاصة بعد مرور تلك السنوات الطويلة على غيابه كما أن الامل فى عودته أصبح مستحيلاً .

وتحت ضربات سيوف الإلحاح الموجعة استقر رأيها على الزواج من ابن خالتها وقد تأمل الجميع خيراً فيه مع وعد منه بانه سينسيها حسام واللى خلفوه .

أخطا نجيب فى حدسه وخاصة عندما رزقا بمولود أصرت نغم على تسميته بحسام ، وقد رفض هو ذلك وأصرت هى فقذف فى وجهها بيمين الطلاق لتعلن تحررها من مشاعر الخيانة والندم والتى كبلتها منذ زواجها منه .

مازالت نغم وبعد مرور خمس سنوات على اعتقال حسام تنظر فى وجه كل شبيه له ، تناشد كل من له سلطة لمعرفة مكانه ، تحاول فتح القلوب الموصدة على الكراهية لتساعدها فى بحثها عنه ، تلملم أجزاء نفسها المبعثرة خلفه ، وحيدة مع ذكرياتها وحسامها

الصغير ومع محاولات كثيرة من الأهل لتغيير اسم الصغير والعودة إلى زوجها مرة اخرى ولكن وحتى الآن بلا طائل .

تذكر اسماعيل كلماتها قبل ان تقفل سماعة الهاتف وهمس دموعها وهي تقول له : ترددت ألف مرة قبل أن أدير رقمك سيدى ولكن الصمت والوحدة والوجع وشعورى بالحاجة إلى انسان لا أعرفه لأفضى إليه بمكنونات روحى كل هذا جعلنى أحادثك .

كما انك وهذا هو المهم شبيه للغائب الحاضر .

ولتعذرنى سيدى فمع توهج حبى الذى ما انقطع ، والذى لم يعرف كيف ينطفئ أو حتى ينحنى قررت أن أضع جزءاً من أثقالى وهمومى على مائدتك .

تمنى إسماعيل مئات المرات بل ملايينها أن تعود وتحادثه مرة أخرى متخيلاً إياها وحيدة فى عالم اندثر فيه الوفاء ، تخيلها وهى تتدفق حبًّا من أجل حسام طفلها لأن حبها لحسامها الغائب موصول ببئر عميقة داخل روحها ، تخيلها وهى، ولربما إلى الأبد، وهى مازالت تبحث...

المزج الثانى

الخروج من شرنقة الحلم

الجاكيت

كانت تجلس أمامي مباشرة ، وكلما رفعت رأسي عن الكتاب الذى بيدى أرى شبح ابتسامة تلوح فوق شفتيها فأرد لها الابتسامة ثم أعود لأغرق مع (فريد تشابل) الكاتب الرائع والذى صحبنى معه فى رحلة حب أبدية خلال قصصه المفعمة بالحياة والحب (معكم إلى الأبد) .

أصرت عيناها على العبث بهدوئي وسكينتي ، حاولت أن أعود للكتاب بلا فائدة نظرت إلى صفحة النيل المنغرس في أوردتي عشقا ، ولكن أبت رياح الفضول المندفعة من ناحيتها اتجاهى أن تفارقنى

بدت لى على أعتاب الأربعينيات ، مازالت قافلة الجمال لم تغادرها ، شقراء تلمع تحت حاجبيها زرقة بحر لانهائية ، شعرها ينتثر حول وجهها فى غير انتظام ، تبدو فارعة الطول وقوية البنية يحمل وجهها مسحة من رجولة ، اشعر بأن نظراتها تائهة فى غير تركيز ، مازالت تصر على اقتحامى بنظراتها الرائقة ، وها هى تدعونى للجلوس بجانبها بإيماءة خفيفة من رأسها وابتسامة ودودة ولكنى قلت لها : تفضلى أنت بجانبى .. وأشرت إلى الكرسى الفارغ بجانبى .

- ماذا قلت ؟

كررت دعوتى إليها بالإنجليزية بعد أن أدركت إنها لا تتكلم العربية ، فقامت من كرسيها وبدون تكلف أشارت إلى الجرسون وأمرته بحمل شرابها وشنطتها إلى طاولتى ، أما هى فقد حملت

كيسًا من البلاستيك داخله جاكيت رجالي ووضعته على كرسى فارغ أمامي وجلست هى بجانبى . .

صوبت نظراتها وبتركيز شديد فوق وجهي وبادرتنى بالسؤال :

- هل أنت من مصر ؟

- نعم ؟

- أنا من ألمانيا ، أقيم هنا واسمى داجمر .

- وأنا شذا .

- ماذا تعملين ؟

- دكتورة .

- أى تخصص؟

- تخصص نساء وولادة .

سكتت قليلاً ثم ابتسمت ، قمت أنا فى أثناء ذلك بجولة متأنية حول ملابسها الأنيقة والمتناسقة والمختارة بعناية فائقة وسألتها :

- هل أنتِ متزوجة يا داجمر ؟

- نعم

- هل يعمل زوجك فى مصر ؟

- زوجى كان يعمل ، وأنا كنت أعمل سابقًا ولكنى توقفت عن العمل .

- هل لديك أولاد؟

- لا .

- نسيت أن أسأل ماذا تشربين ؟

- شكرا شذا . . النبيذ لم ينته بعد ، ولكنى آسفة إن كنت قطعت خلوتك .

- ولم الأسف .. أنا أتململ من الجلوس بمفردى أحيانًا ، أهلاً وسهلاً بك .

- هل أنت متزوجة شذا ؟

- نعم ولى طفل واحد .

- شكلك لا يوحى بأنك زوجة وأم .

- الحمد لله هذا فضل من الله .

- زوجى يحب الأطفال كثيراً .

- وما مشكلتك فى عدم الإنجاب ؟

أشارت داجمر إلى (الجاكيت) الساكن على الكرسى بجوارنا وفجأة قالت :

- المشكلة فى عدم وجود زوجى .

- كيف ؟

- اختفى منذ زمن طويل ..

ارتسمت الدهشة فوق ملامحى ونظرت إليها بشفقة عندما رأيت الدموع تنبثق من عينيها الزرقاوين وقد ترقرقت على وجه امتلأت تجاعيده الخفيفة بحزن شفيف .

ناولتها حفنة من المناديل الورقية لتجفف دموعها فتمخطت بصوت عال ومحرج .. واستطعت أنا أن ألجم فضولاً طفا فوق نفسى من ناحيتها لأترك لها الفرصة فى التحدث عن نفسها وتروى لى حكايتها ..

فتحت حقيبتها وتناولت علبة سجائر وولاعة على شكل أسد ، ذهبية مطعمة بالعديد من الأحجار الكريمة توحى بالفخامة والثراء .. قدمت لى العلبة فاعتذرت لأننى لا أدخن فسألت :

- هل تسمحين لى بالتدخين ؟
- على الرحب والسعة .
- هل لديك وقت لسماع حكايتى ؟
- نعم .. اليوم اصطحب زوجى ولدنا لزيارة جدته فى مدينة أخرى وسوف يعودان فى المساء لذا لا عليك من الوقت .
- آه يا شذا منذ زمن طويل لم أتكلم مع أحد عما فى قلبى .
- تفضلى .
- تعرفت على عبد الهادى عندما كان يدرس فى وطنى ألمانيا ، كنت أسبقه بعام دراسي واحد ولكن فى نفس الكلية (إدارة واقتصاد) أحببته كثيراً وأسرنى بسحر حديثه ووسامته ورجولته الظاهرة ، بادلنى حبًّا بحب فشعرت بسعادة لا مثيل لها ، أصبحت علاقتى به نادرة ذات أبعاد متعددة وقد أغنانى عن كل ماعداه ، فما عدت أرى سواه ، عارض والدى فى البداية تلك العلاقة لأننى ابنته الوحيدة أولاً ثم إنه كان يعمل دبلوماسيًّا فى الخارجية وقد حاول وبشتى الطرق أن ينهى علاقتى بعبد الهادى فما استطاع لأننى هددت بالانتحار إذا هو أضر به أو حاول إبعاده عن ألمانيا . .

كان عبد الهادى يسكن فى شقة صغيرة فى حى هادئ يبعد عن الجامعة مسافة نصف ساعة بالباص ، انتقلت للسكن معه حتى نتزوج فيما بعد وكما اتفقت معه ، تعاونت وإياه على الحياة وتدبير شئوننا إلى أن تخرجت وعملت بأكبر الشركات الاستشارية فى التسويق وبواسطة اسم والدى ، وكنت أساعد عبد الهادى فى دراسته عند عودتى من العمل .

تزوجنا زواجًا مدنيًّا واستقرت حياتنا ، وعندما عرف والدى

بأمر زواجنا اشتد الصراع بينه وبيننا فى محاولات يائسة حتى أنفصل عنه ، وعندما وجد أنه من الصعب أسقط فى يده واحتوانى وزوجى من جديد .

بعد أن أنهى عبد الهادى العام المتبقى له ونجح بامتياز أراد أن يعمل فى ألمانيا لبعض الوقت ثم بعدها نعود إلى مصر بعد أن ينتهى من إجراءات حصوله على الجنسية الألمانية لزواجه منى .

كان عبد الهادى صلبًا لا يلين ، مجداً مثابراً فى عمله وقد عمل فى نفس الشركة التى كنت اعمل بها ، وبذكائه استطاع أن يحصل على العديد من الصفقات لصالح الشركة والتى كانت سبباً فى نجاحها وارتفاع أسهمها ، وحاز على ثقة أصحابها ومنح منصب قيادى كمكافأة له .

أصبح مصدر فخر إلى أينما ذهبت ، ومضت حياتنا فى سعادة غامرة لا ينقصها سوى حنينا لطفل يملأ الكون شقاوة وبراءة حولنا ثم هاجس عودتنا إلى مصر . .

وفى فترة زمنية قصيرة أصبح عبد الهادى من أكفأ رجال الأعمال وهو بذلك تحقق من أن حلمه فى النجاح والثراء قد أصبح حقيقة ،آن للطائر المهاجر إذن أن يعود . وأخيرا عدنا وسط فرحة أهله للغائب الذى طال غيابه .

سكتت قليلا ثم سألت : هل أضايقك بالتفاصيل شذا ؟

- لا أكملى.

تركت لمسة حانية من يدى تأكيداً منى على الاهتمام فوق يدها المنبسطة أمامى ورأيت نظرة فرح تطل من عينيها وهى تنظر إلى الجاكيت وكأنها تزف له بشرى ، وشعرت بأن تلك المرأة والتى

تبدو فوق أعلى قمم القوة هي تحيا منحدر الضعف ، ترى من يساندها أو سيساندها ؟

سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها وألقت بنظراتها الزرقاء فوق وجهي وقالت :

- كم أنت جميلة يا شذا ، إن ملامحك دقيقة رقيقة ..

تابعت حديثها بدون انتظار أي تعليق مني على كلماتها الدافئة ..

- استطاع عبد الهادي أن يحقق نجاحات كثيرة في مصر وأصبح بحكم أعماله التي كثرت وزادت أعباؤها يتغيب كثيراً عن المنزل ، أما أنا فقد فقدت الرغبة في العمل فترك لي حرية الاختيار وقد فرح بقراري لأن هذا ما كان يتمناه (أن أجلس في البيت أجيب له عيال) هكذا كان يمزح معي دائماً ، وفكرت جدياً في الحصول على طفل وخاصة بأننا متزوجان منذ ما يقرب من السنوات العشر ..

وبدأنا رحلة العذاب من طبيب إلى آخر ، ومن بلد إلى آخر في البحث عن العلة التي تمنع أن يكون لنا طفل ، وبالطبع كان كل طبيب يختلف في تشخيصه عن الآخر ، والشيء الوحيد الذي اتفق عليه كل الأطباء هو أنني سليمة ولا مانع لدي من حدوث الحمل .

ومع كل تأكيد لطبيب بعدم إعاقتي بالنسبة للحمل ، بدأ عبدالهادي يشك في قدرته على الإنجاب وعلى الرغم من أننا كنا نمارس حياتنا الجنسية بانسجام تام إلا أن حالته النفسية أثرت عليه كثيراً في الآونة الأخيرة فقرر أن يبتعد عن مشاركتي اللحظات الحميمة ونسافر إلى أمريكا للبحث عن علاج من أجله ، وهناك

صدمته وصدمتنى الحقيقة ، فبعد إجراء كل التحاليل الضرورية لكلينا كانت النتيجة أن عبد الهادى هو الشخص الواحد من كل ثلاثة ملايين الذى لا يتكون لديه الحيوانات المنوية اللازمة والضرورية في عملية الإخصاب لإحداث الحمل ، وهذا العيب ربما يكون مولوداً به (خلقياً) أو أنه نتيجة صدمة معينة أو تناول جرعات دوائية قضت على إنتاج الحيوانات المنوية ، كما تعلمين بالطبع .

وكان هذا التشخيص بمثابة النهاية لزوجي ، أهمل فى عمله ومال إلى العزلة وفقد حبه للحياة وطلب منى أكثر من مرة أن أتركه وأعود لبلادى حتى أتزوج بآخر وأنجب ، لم أستطيع للأسف وعلى الرغم من حبي الكبير أن أصلح ما أفسده الطب .. حاولت وبشتى الطرق أن أوقظ الرجل داخله ليأخذنى فى أحضانه الدافئة والتى اشتقت إليها كثيراً وخاصة بأنه أصبح يتحاشى الجلوس معى أو حتى النظر إلى، ولكن بلا فائدة ..

مصائب عديدة ألقت بظلالها الكئيبة على حياتى من بعد موت عبد الهادى المفاجئ، ولكنى بفضل حبى وإخلاصى له تجاوزتها .. حاولت أن أعود إلى بلدى ولكن لمن أترك أموالنا وشركتنا الناجحة نجاحًا منقطع النظير ؟ ؟ شقتنا الجميلة المطلة على أجمل نيل فى العالم والتى جمعتنى فيها وعبدالهادى أحلى الأوقات والذكريات ؟

فترة عصيبة مرت ما بين اتخاذ القرار بالعودة أو بالبقاء ، وأخيراً قررت أن أبقى .

بعد مرور ثلاث سنوات على رحيله وجدت نفسى معزولة عن

العالم فحياتي أصبحت خاوية ، لا أصدقاء ولا صديقات سوى بعض الزيارات العائلية القليلة من أهل عبد الهادى رحمه الله ، هذا بالإضافة إلى أننى تعبت كثيراً من العمل ، فقررت بيع نصيبى فى كل شيء تركه لى ماعدا الشقة .

أيامى مرت فارغة لا أزور ولا أزار، وكنت عندما أشتاق للحديث أتحدث مع زوجى عبر صوره المنتشرة فى كل ركن من أركان شقتنا الجميلة .

كنت مع بداية كل شهر أذهب إلى البنك للحصول على ما يكفينى من مصروفات تغطى كل ما أحتاج له ، أما بقية احتياجاتى فقد كنت أطلبها عن طريق التليفون ..

وذات يوم أسر لى عبد الهادى برغبته فى أن اخرج إلى الحياة ، وقد رضيت أخيراً بشرط أن يخرج معى .

عقدت الدهشة لسانى وسألتها فجأة :

- ذكرت لى أنه مات .

أشارت مرة أخرى إلى الجاكيت وقالت :

- هو ذا ، هذا هو الجاكيت الجميل الأنيق الذى كنت أحبه عليه، أحمله معى إلى كل مكان ، فأشعر بوجوده يكتمل مع وجودى ومعه أستعذب الوجوه الكالحة .. ومعه أستطيع احتمال الحياة ومواجهتها ..

وكما يبدو أنها أدركت ما يجول فى عقلى فردت بسرعة :

- لست مجنونة فكل ما فى الأمر أننى ما زلت أحبه وما زلت أحيا داخل شرنقته التى لا أستطيع الفكاك منها ، حتى أننى أخشى من الوقوع فى حب أى رجل آخر خوفاً من أن أجرح صدقى معه

وإخلاصى له ..

- ولكنه ميت الآن ، ثم من قال إن الحياة تتوقف ، إن حياتك أمانة بين يديك عليك أن تعيشيها والفطرة الطبيعية تفرض عليك احتياجًا عاطفيًّا للرجل !!!

- هذا ما اكتشفته أخيراً ولكنى لست فى حاجة إلى رجل ، أتمنى أن أجد صديقة حقيقية تخفف وحدتى أجدها متى احتجت إليها ، هل تقبلين صداقتى ؟؟ لقد شجعتنى ابتسامتك المضيئة ولأول مرة أشعر بالجمال عندما رأيتك فكم أنت مثيرة وفاتنة .

وفجأة انزلقت يدها القوية إلى فخذى وضغطت بشدة وتركت بحرها الأزرق يغسل وجهى وقالت :

- ستكون علاقتى بك خاصة جدًّا وستعوضيننى عن أشياء كثيرة وغالية افتقدتها منذ زمن طويل ، متى تأتين إلى منزلى ؟

لم أستوعب كلماتها ومقصدها ولكنى وعلى الرغم من ذلك قلت لها :

- عما قريب إن شاء الله .

أمسكت بورقة وقلم لتسجل عليها العنوان ورقم هاتفها وهى تتمتم :

- أجل بالتأكيد سنصبح صديقتين رائعتين .

ناولتنى الورقة قالت :

- هل أنتظرك فى الغد فأنا مشتاقة لأشياء كثيرة افتقدتها منذ زمن طويل ...

لم تترك لى أى فرصة للرد عليها إذ قامت فجأة وبقامتها العالية انحنت على الجاكيت الذى سكن بجانبها على الكرسى وحملته

برفق وحنان شديدين ..

مدت يدها الأخرى لتأخذ يدى فى لحظات حميمة تغيب بها عن الكون فتضغط عليها بقوة وببريق فى العين لم أره من قبل وانحناءة مفاجأة أمام وجهى لتطبع فوقه قبلة ساخنة ، وبقدرة فائقة منها على استئصال قدرتى على الكلام قالت :

– شذا عندما تأتينى فى الغد أرجو أن تحضرى معك ثوبًا للنوم مثيرًا ومكشوفا وغمزت بعينها وأدارت ظهرها لى، وبخطوات واثقة وحملها الثمين بين يديها ودهشة منى لاحقتها حتى غابت عن ناظرى .

الـــوردة

هل حقًا هذه النقود لى ؟هل أستطيع أن أدفع منها للعبة البساط السحرى ؟

لم أنس أبدًا هذه الكلمات ، ولم أنس تلك النظرة التى امتلأت بالرضا إلى حد التشبع وبالشكر إلى درجة الامتنان .

تلازمنى هذه الكلمات وتلك النظرة منذ حوالى خمس سنوات ومازالت تخترقنى وتنشر الحزن فى روحى ، تذكرنى دائمًا بأن هناك من لا يجد كسرة خبز يابسة وتجعلنى أشكر الله كثيرًا على نعمه والتى أحيانًا كثيرة ما نتناساها .

فى إحدى الإجازات الصيفية والتى غالبًا ما كنت أقضيها فى القاهرة ، تلك المدينة التى أحبها وأشتاق إليها وأهرب منها إليها ، ذهبت أنا وأبناء وبنات خالتى لقضاء يوم فى مدينة الملاهى ودائمًا ما كانت تلك الأيام التى نذهب فيها إلى الملاهى أيامًا مميزة لجميعنا حيث ا لفرح والبراءة والإشراق ، وعلى الرغم الرغم من أننى لست بطفلة إلا أن روح الطفولة تتلبسنا فتجعلنا نقفز و نمرح أكثر من الأطفال . . اعتدنا أن نأخذ مبلغًا كبيرًا معنا حتى نغطى كل نفقاتنا وحتى نستطيع تجربة كل الألعاب وما يتبقى من المبلغ كنا نتناول عشاءنا به ، كان الوقت قد تعدى منتصف الليل وكنت أحس بالتعب والجوع ، أما البقية فكانت لا تزال لديهم طاقة تكفيهم للعب لمدة يومين متواصلين . وصلنا أخيرًا إلى آخر لعبة وهى سيارات التصادم وهذه اللعبة على الأخص لا تحظى بميل منى ناحيتها وإضافة إلى أننى فقدت أى رغبة باللعب ، وأصبح الطعام

وكيفية الحصول عليه هو ما يشغل بالى، لذلك اتفقت مع الجميع على أن يذهبوا للعب وأذهب أنا لجلب الطعام، واتجهت لبائع الشطائر والذى كان واقفًا بجانب حلبة التصادم، وبينما يعد هو الطعام لم أجد شيئًا يشغلنى سوى مراقبة المارة والغارقين فى صراعات التصادم، وبينما كنت أتلفت يمينًا ويسارًا لفت نظرى طفل صغير لا يتعدى عمره الثمانية، أبيض البشرة ورقيق الملامح يلبس بنطالاً قصر على طوله وصغر على حجمه وقميصًا يبدو قديمًا جدًا ويحمل فى يده كمية كبيرة من الورد، كل وردة وضعها بعناية فى ورق ملون كل واحدة على حدة، لم أدر لماذا يحمل الورد؟؟ ولا الذى دفعنى لمراقبته؟؟ كان يقف بقرب حلبة سيارات التصادم يراقب حركات اللاعبين أحيانًا، وشغل لوقت قصير بإعادة ترتيب الورد أو عرضه على أحد المارة، وعندما لا يجد من يهتم بوروده الذابلة يعود مسرعًا لمراقبة المتصادمين بالسيارات وفى عينيه لهفة وفرحة للمنتصر وحزن للذى انهزم. نسيت أمر الطعام واقتربت من الطفل ورأيت فى عينيه رغبة مكبوتة ليصبح مكان أحد الأطفال الذين يلعبون ناظرًا إلى ورداته بحنو شديد عندما يتذكر أنه يحملها وسط هذا المهرجان الطفولى الذى لا مكان له فيه، وفجأة وكأنه تذكر شيئًا ارتسمت علامات الحزن على قسمات وجهه البرىء وجلس متربعًا على الأرض واضعًا ورداته عاصرًا إياها فى أحضانه واستند بيديه على الحاجز الحديدى ليراقب اللاعبين من بين أقدام المارة، لم أفهم لماذا الحزن كسا الوجه الجميل البرىء؟

توقفت اللعبة وانتفض الولد وحمل ورداته ورسم على شفتيه

ابتسامة من الواضح أنه اختلسها من أعماقه فخرجت باهتة أقرب للحزن منها للفرح وتكاد تكون بكاء أكثر منها ابتسامًا، بدا يتمسح بالناس في يأس يعرض عليهم ورداته ولكن بلا طائل فلا أحد يصغي إليه ولا أحد يريد أن يتلهى بوردة، لم أصدق عيناى، تابعت مراقبته، طفل في عمر ورداته يحاول يائسًا بيع الورد في عالم فقد رقة الورد وعذوبته، بدأت رأسى تدور وتذكرت المبلغ الذى أنفقناه اليوم فى لا شيء، تذكرت فرحتنا وبهجتنا مع أننا لسنا أطفالاً، تذكرت أننا قطعنا شوطًا فى النضج، تذكرت أننا أخذنا حق غيرها في المتعة، أما ما أذهلنى فهو عدم اهتمام الناس وكأن هذا الطفل الذى كان يجب أن يكون فى حضن أمه يتمتع بدفء أنفاسها، وكأن البؤس والظلم شيء اعتيادى، وكأن هذا الطفل قدره أن يسهر الليالى فلا يلهو ولا يعبأ إلا بلقمة العيش المُرة التى أجبرته على أن يعرض وروده بلا فائدة وبلا أى ردة فعل إيجابية من الناس التى قست قلوبهم، ووددت لو أصرخ بأعلى صوتى وأنا أرى تلك النظرة الحائرة والمستعطفة لقلبى وهو يمد يده أمام وجهى بوردة قائلاً: لا تخافى ليست غالية، إنها بربع جنيه فقط».

ازددت ألمًا فوق ألمي ونظرت إليه وابتسمت قائلة: سأشتريها ولكن بشرط أن تجيب على سؤالى: هل تود أن تلعب؟؟ نظر إلىّ بتعجب ولم يُجب فقلتُ له سآخذ وردة ولكن عليك أن تلتزم بشرطى.

أجاب بلهفة: ما هو؟

قلت: أن تلعب بالنقود التى سأعطيك إياها. نظر إلىّ حائرًا

متردداً وسأل: وكم ستعطيني؟؟

ناولته آخر ما تبقى معي من نقود وكنت سأدفعها ثمناً للشطائر حتى أسكت بها جوعي الشديد، وبمجرد أن أمسك في يده النقود رأيت تلك النظرة نظرة الفرح والشكر والحب والامتنان والأمل والرجاء والبراءة وسأل: هل كل تلك النقود لي؟؟

وهل أستطيع أن ألعب بجزء منها والباقي أشترى به طعاماً لإخوتي؟ قلت له: نعم.

قفز من أمامي وكأنه ريح أثقلتها ساعات الانتظار لتهب الناس ماءها، قفز ليتمتع دقائق معدودة ليعود مرة أخرى طفلاً معدماً سرقت منه طفولته وبراءته تحت سياط الحاجة والقهر. نظرت إلى جمال الوردة رغم ذبولها وهمت دموعي.

الغـروب

وقفت بجانب سريرها، أتأمل عينيها التائهتين، أمسح بكفي على رأسها، ناظرة إلى شحوب وجهها كشحوب خلفته غيبة شمس.

الوحيدة التي تستوقفني عند زيارتي لتلك الدار (دار المسنين) تناولت مريم يدي المستكينة بجانب أعلى صدرها الأيمن وقربتها إلى شفتيها وقبلتها، فسرى الدفء في جسدي سريان النسغ من الجذور إلى الغصون وعلا وجيب قلبي ...

يدها مهزولة ... دائماً ترقد رقدة الاستسلام ... صوتها واجف ومن صدر شقته لوعة الوحدة دائما تنادي :

– يا محمد ... يا نوف أين أنتم ؟

عندما أمر عليها تلمع العين الخابية إلى حين في محاولة يائسة لاسترداد الحياة ، لقد هدت الشيخوخة وقسوة البنين والبنات والأهلِ والخلان هذا الجسد وأشاعت فيه النحول والضعف ليصبح محمّلاً بمرائر لا يقوى على تحملها أو إدراكها.

لم يتبق من مريم إلا خيط واه يربطها بالعالم الخارجي بعد أن أصيبت بجلطة دماغية جعلت نصفها الأيمن عاجزاً عن الحركة مع انحسار لذاكرتها أحيانًا، نسيها من أحضرها إلى تلك الدار ونسيت بين جدرانه.

لست أدري ما الذي يربطني بها ؟؟ شيء ما يخترق الحواجز والسدود ليصل إليها خلال عزلتها ، فأعجب من جفوة الإنسان وشقائه ، لأرى القلوب وقد أقفلت أبوابها ، وغشاوة وسعتها

ملاهي الدنيا فوق الأفئدة فيها اندفاعه الطيش وجهله .

شحيح هذا الزمان الذى يفرض الصدام على الشيوخ .

تحسست جبينها ويدى مازالت بين يديها تضغط عليها فى فهم مشترك وود صامت وقد التقطت عيناى فوق جبينها لحظات من الشرود وفكر غاب منذ زمن ، وفى العين دمع لم تجهر به ...

ها هى مريم وكل ما تبقى منها ، عين شاخصة ، ووجه شاحب ، ويد وانية ضعيفة فى حركتها تعثر وارتعاش ، تمارس خداعًا ذاتيًّا لنفسها يوميًّا ممنية النفس بزيارة من أحدهم للسؤال عن صحتها ، وقد كانت ذات يوم ملء العين تعصر روحها رحيقًا من أجل من عاشت من أجلهم ...

وعلى غير انتظار سمعت مريم وبصوت واضح النبرات هامس حانٍ وهى مازالت تمسك يدى بيديها (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلت حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين)

مازالت تضغط على يدى المسترخية فوق يدها وسألت :

- هل لى بطلب ؟

- لا عليك سيدتى اطلبى ...

- قبلى عنى ابنتى نوف وولدى محمد فلقد آن للنازح أن يعود من حيث آتى يا بنيتى .

تقاطرت الدموع من عينى بعد أن سكن وجهها الشاحب نور بهىّ وتعلقت عيناها بوجهى وأفلتت يدى من يديها لأدرك بأن مريم قد رحلت وبأن برودة الموت وغربته أحن وأدفأ من بشر ملأنا حياتهم برحيق أرواحنا ...

بين حبين

انقضت الليلة عذبة، لم تسمع نور أى جلبة من غرفة عمتها كالعادة ، ولكنها استيقظت والرجفة تهز روحها بعنف ، أسرعت إلى غرفتها وبهدوء وضعت يدها أمام فم عمتها المفتوح لتحس بأنفاسها وهى تأخذ طريقها للحياة من صدر تشعر به خاليًا موحشًا إلا من صدى أنفاس ترتعش على وشك المغيب .

فتحت العمة عينيها وبصوت واهن هدَّه الألم همست : ما الذى أيقظك الآن حبيبتى ؟

لم تنطق نور بكلمة وإنما أمسكت بيد معروقة دافئة وقربتها من شفتيها وقبلتها وهى صامتة واستردت عمتها قائلة فى وهن : ها يانور ماذا قررت لقد طال عذابك معى لماذا لا تعطينى تلك الإبرة فأغيب بعدها غيبة أبدية ؟

لا تقولى هذا يا عمتى فأنا ليس لى أحد فى الحياة غيرك حبيبتى؟ فكيف أفعل ذلك وأنسى بأنك قد كفلتنى بعد موت أبى وأمى ، وأنسى بأنك ربيتنى فأحسنت تربيتى ، وكيف لى أن أنسى بأنك رفضت الزواج من أجلى وتقاسمت حياتك وحياتى مع الوحدة والخوف والهم والبرد والمرض ومشاق العمل وتدبير حياتنا سويًا ؟! فكيف لى بالجرأة لأفعل مثل ما تريدين منى، أتريدين منى أن أنسى بأنك كنت أول وجه طبع فوق ذاكرتى ، ذلك الوجه الغارق فى الصفاء و الحنان ، وبأن حروف اسمك أول حروف جرت على لسانى ، وحتى كلمة أمى التى عزت على لم أنطقها إلا من أجل عينيك . . .

- أعلم كل هذا يا صغيرتي، ولكنني أثقل عليك في المصاريف ، وكلانا يعلم أنه لا فائدة ، فلم تطيلي من عمر أوجاعي التي أصبحت لا أحتملها ؟

- يا عمتي لا تحملي الهم وأريدك أن ترضي بحكم الله وأنا أعلم بأنك أكثر ارتباطًا به مني فكيف تريدين أن تنكثي عهدك معه أليس هو الذي وهبك الحياة وهو وحده الذي سيستردها متى شاء فدعي عنك أشباحًا تريد هزيمتك .

- ونعم بالله يا صغيرتي ، ولكن لا طاقة لي على تحمل هذا المرض فهو يزهق روحي ألف مرة ومرة كما أني أدرك ارتفاع أسعار الأدوية وغلاءها وهذا عبء عليك وبلا طائل فعما قريب سينفد سهم الله فلم تتركيني والألم وفي يدك راحتي ؟ !.

- أنسيت بأني ممرضة وبأن الجرعات لا تكلفني إلا نصف ثمنها !

- أنا أريد أن تدخري ما تملكين من مال من أجل مستقبلك يا حبيبتي فأنا ذاهبة وأنت قادمة .

- ياعمتي أنت مستقبلي وماضي وحاضري .

وفجأة وهما على تلك الحال داهمت العمة نوبة سوداء من الألم أبكت نور وطحنتها بين مطرقة حبها لعمتها وحنوها عليها وسندان خوفها القابع داخلها من التعدي على أمانة الله التي وضعها في طريقها (حياة عمتها الغالية) .

تأرجحت نور بين لحظة مناقضة للحظة ومكملة لأخرى ، لحظة رفعتها منتشية إلى السماء لترى وجه عمتها وقد سكنته الراحة بعد طول عذاب ، ولحظة أخرى رأت فيما يرى الحالم كم هو

المستقبل قاتم أمامها بدون رفقة هذا القلب الحنون .

وبإصرار فاق شعورها بالتناقض وهى ترى عمتها تتمزق تحت سياط الألم الذى لا يرحم أزاحت الملاءة البيضاء عن صدرها أمسكت برفق ذراعها وتناولت القطعة المطاطية وربطتها أعلاه وبدأت تفتش برءوس أصابعها عن وريد لتصب فيه نهاية عذابات السنين الطويلة وهى مصاحبة لهذا المرض اللعين والذى لم يرحمها وحقنت جرعة زائدة من المورفين أسكتت الجسد المعذب بعد لحظات قصيرة .

نظرت نور إلى الوجه الرائق ، وتعجبت ؛ كيف لسكينة الموت أن تجعل هذا الوجه والذى كان للحظات قصيرة مضت ينخ تحت وطأة الألم وصراع طويل مع سرطان رسم ببصماته أبشع الصور على وجه عمتها الحبيب .

لقد تقبلت عمتها فى جلال نهاية الصراع ليكشف وجهها أخيراً عن هدوء وجمال لم تعرفه نور فى وجه عمتها من قبل .

استنشقت نور هواء الفجر بقوة كى تحبس الدموع فى مقلتيها فها هو الأمل قد رحل والمستقبل قد غاب .

الحدس

ذات مساء ساخط ملبد بالاغتيالات جلست نور ساكنة فوق سريرها تنظر إلى صديقتها وابنة خالتها نضال وهى تروح وتجىء عبر أرجاء الغرفة.

نضال ستحل ضيفة شقية ليومين فى منزل خالتها لتملأه صخبًا ومرحًا :

- عطرك ثقيل يا نضال. . . أما زلت تستعملينه وهو صناعة إسرائيلية ألم أقل لك ألف مرة بأن علينا أن نقلل من الاعتماد على صناعاتهم !

- إذن عليك بالاستغناء عن آلاف الأشياء .

كانت نضال تبذل جهداً وهى تخلع ملابسها أمام نور لترتدى ثوب النوم الذى أحضرته معها ، وقد بدا جسدها ناصع البياض ممتلئًا بالحياة كما لو أن أرضا ستفور بخيراتها عما قريب .

- نضال ... أين كنت وقد قالت أمك بأنك خرجت إلينا منذ أكثر من ساعتين ؟

- معه بالطبع ... يداً على يد نقذف الحجارة فى وجوههم..

- هل جننت، أمك لو علمت لأصيبت بالجنون، ألا تدركين مدى معاناتها وأنت المتبقية لها بعد استشهاد أخويك ووالدك فى المواجهات اليومية بيننا وبينهم .

- أحبه يا نور.. والوقت الوحيد حتى ألتقيه عندما نكون فى مواجهتهم لقذف الحجارة ، هل تصدقى أنه عندما يلمس يدى واضعًا حجراً فيها يتزلزل كيانى وتبعث القوى الكامنة داخلى

قوى مضاعفة فيخترق حجرى الصغير خوذة أحدهم أو زجاج سيارته عندها يجد الفرح طريقًا مستقيمًا عبر وجدانى وخاصة عندما يشد على يدى مؤيدًا لما فعلت ، وإذا ضمنى إلى صدره خوفا على من الطلقات النارية اشعر بأننى أمتلك الكون ويهمس قلبى له : سيكون لنا اطفال كثير يكونون امتداد لنا على أرضنا فلسطين الحبيبة شاء العدو أو أبى .

– ولم لا تنتظرين حتى تتزوجا بعد أن ينتهى من دراسته فقد مضى الكثير فهو سيتخرج العام القادم ، ولا داعى لهذا القلق الذى تفرضيه علينا كلنا . . .

– آه من عقدك الكثيرة يا ابنة خالتى وصديقتى . . . كم أتمنى أن تنسى ولو للحظة تلك الأعرابية المنغلقة على زواياها الساكنة أعماقك . . .

نظرت نور إلى نضال وشع النزف داخلها أصدافًا ملونة كشفت عن مناطق الغموض بشفافية بالغة وكأنها ترى نهاية قريبة ، إنه حدسها المتشائم الذى لم يخذلها مرة . . .

– يا حبيبتى نحن شعب لا وقت لديه للحب ، فواجب تحرير الأرض أثقل كاهلنا منذ زمن بعيد .

– ومن قال بأن قوافل حياتنا يجب أن تغلق نوافذها أمام الحب يا عزيزتى ، لو لم يكن الحب لما كانت هناك تلك العلاقة الدائمة والعشق الذى يقطر عسلاً فوق القلوب لأرض يسقيها أبناؤها كل يوم دماء طاهرة غير مبالين بالموت ، كاشفين صدورهم أمام العدو لا يحميهم سوى إيمانهم بنصر قريب . . .

عقدت نضال شعرها المسترسل الأسود الطويل وتهيأت

للاسترخاء بجانب ابنة خالتها وصديقتها نور، وكعادتهما عندما يلتقيان لا ينقطع الحديث بينهما حتى التباشير الأولى من الصباح، أرادت نضال أن تفجر فقاعات اللعبة وتبعث الغيظ فى نفس نور فسألتها سؤالاً مباغتًا : نور ألم تتذوقى طعم القبلة ؟

لم يكن بوسع نور أن تدخل لعبة الحوارات العبثية مع ابنة خالتها ولكنها قالت بانفعال : ألا تخافين الله ... آلا تقدرين ما نحن فيه ... تتحدثين عن الحب وتتناسين خيباتنا المتتالية مع هذا الصمت المخزى من جانب العرب؟ وتركنا فى بئر عميقة لا قرار لها.. أم تتناسين أحزان كل بيت ودع شهيداً فى عمر الزهور؟

– يا سيادة المتحدثة باسم القضية ، أقسم لك بأننى أدرك كل ما تقولين وأكثر ولكن ما بال سؤالى عن القبلة والحب والقضية ؟؟ أنا أعلم ما تعلمين وأكثر ولكن الذى أدركه أكثر منك وأثق فى حدوثه مثلما أثق فى وجودى معك الآن بأننا شعب لا يموت وكلما سقطت منا ورقة أورقت بدلاً منها آلاف الوريقات ... ودعينى أسالك سؤالاً ... بعد أن نستعيد أرضنا وتزدهر حقولنا ، ماذا يتبقى لنا سوى الحب الذى به نحيا وبه نموت ؟؟؟ ثم إننى وعلى ما يبدو غبية لأنك لن تدرى كى متعة الحب يا عزيزتى إلا إذا جربتيه !!!

كان المطر يرسل سياطًا تلسع الشباك بعنف، شعرتا بالصقيع يملأ المكان ، التصقت كل واحدة بالأخرى نظرت نور إلى نضال والتى على الرغم من مرحها الدائم إلا أنها بدت لها كتلة منكمشة مشبعة بالوجع والعذاب عبر مطارات صاخبة تعج بجوازات سفر مؤقتة وتراخيص إقامة لأهلهم فى كل أصقاع العالم ...

أرادت نضال أن تنشر البهجة قليلا وسط هذا الجو الخانق المعبأ

بالانكسار وأن تغيظ نور مرة أخرى فسألتها : لم لا تقولين لى ما رأيك فى القبلة ؟

رفعت نور حاجبيها مستهجنة وقالت : فعلاً أنت مجنونة . . .

فرقعت نضال ضحكة عالية فيها صخب وبراءة شقية محببة . .

- نعم يا بنت خالتي (القبلة، القبلة، القبلة إن كانت للملهوف اللى على خده الورد يطوف ياخدها بدال الوحدة ألوف ولا يخشى للناس ملام) الله الله يا ثومة. ضحكت نور برغم تحفظها الدائم وخوفها المستكين في أعماقها الخاوية والتي دومًا تشم فيها رائحة الموت ، والمحملة دائمًا بقلق لا نهائي ودائرة احتمال بعيدة تحتكم إليها بحدس قوى ، إلا أنها وعلى الرغم من كل ذلك كانت الأكثر صدقًا فى اشتياقها لعناق مع الحب ولو فى أكثر مرافئ التعشر والضياع ، كم حسدت نضال على جرأتها وقدرتها على البوح بما يجول فى أعماقها ، أفاقت من غيبتها القصيرة على صوت نضال وهي تقول : هل تصدقى يا نور بأننى كنت أكره أم كلثوم قبل أن أحب !

- أنا شخصيًّا أحب عبد الوهاب عندما يشدو بـ (آخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدى) . . . انقضت نضال على نور وجذبتها من شعرها وصرخت فيها : (نقول ثور يقولوا احلبوه) مالنا والظالمين أنا أتحدث عن الحب يا حبيبتى . . . ثم من قال لك إننى لست راغبة في الانعتاق السريع من هذا الاحتلال القميء . . .

سمعتا فجأة صوت لعلعة رصاص عالية على الرغم من صوت زخات المطر المتسارعة الشديدة ، انكمشتا فى فراشهما وهمست

نور : اذكرى الله يا نضال ، أظنهم سيضربون منطقتنا وهذا يبدو من قرب الأصوات حولنا ..

التصقت بجانب صديقتها وهى تتمتم : اللهم اغفر لى ذنبًا ما ارتكبت فيه معصية فأنت الحب ومنك وإليك الحب ياالله ...

أرادت نور أن تنهض من فراشها لتطمئن على إخوانها وأمها فى غرفهم إلا أن نضال جذبتها بقوة وسألتها : نور هل سيغفر الله لى محبتى لمازن ونحن على تلك الحال ؟

– نحن شعب محصن ضد الحرام ، ونحن كل يوم نحضر عرسًا وهناك آلاف من حالات الحب اليومية التى تزخر بها حياتنا وإلا لما كانت الزيجات المتتالية واليومية ورغم كل هذا الجو الخانق وسوء الأحوال الاقتصادية وصمت العالم المهين على ما يحدث لنا من انتهاكات يومية واغتيالات لخيرة شبابنا ، إلا أننا بالحب نموت وبالحب نحيا ، والحب ضمان ضد الانحراف كما أن الحب الحقيقى يحرر الإنسان من التردد والشعور بالذنب فاطمئنى يا غالية كل ما أتمناه أن تسعدى بحياتك أنت ومازن ويكون خلفكما صالحًا ويكون نصيبه من الحياة أفضل من نصيبنا فيها .. هيا انفضى البرد عن جسدك الدافئ وتعالى حتى نطمئن على أمى وإخوتى وتتحدثى أاضًا مع خالتك وتطمئنيها عليك .

همتا بمغادرة فراشهما إلا أن الصوت انفجر عاليا بقربهما ولم تدريا ما حدث ، ووسط الصراخ والعويل اخرج رجال الإسعاف جسدين ربيعيين صدمهما جبل جليدى من الكراهية العمياء ليصدق حدس نور وتغادر هى وصديقتها الحياة قبل أن يجتازا عتبة الفرح ...

الوقت كان وقت الغروب ... البرد شديد ... والشارع يكاد يخلو من المارة ، إلا من تناثر في أطرافه المتباعدة .. أقحمته الحاجة للخروج في مثل هذه الشدة من البرد وقد تعمد بلال أن يحدد هذا الزمن ساعة لخروجه .. ففيه تقل الأقدام .. تسرع الخطوات .. وتضيق الصدور .. قبل الانزواء في البيوت لتنفيذ حظر التجول ، فلا يكون هناك متسع للمرء في التفرس الفضولي لمثيرات الشارع .. وهذا عين ما يصبو إليه وهو متنكر بهوية مزيفة ..

كان بلال على عهد قطعه مع جماعة حماس الذين نذروا أنفسهم لتخليص هذه الأرض من المحتل الغاشم .. وتحرير هذا الشعب الطيب من قيود العبودية والذل .. وقد أقسم معهم ألا تكون لهم حياة إلا بخلاص هذا الوطن وشعبهم الفلسطيني الأبيّ .. تعاهدوا على تطهير الأرض وبشتى الوسائل المتاحة لهم وتحت ظل ظروف قاهرة .. وقد كان قسمهم ثقيلاً على أفراد الجيش الإسرائيلي الذي راح يلاحقهم أينما شبه له وجودهم .. فخاضوا حربهم ومازالوا بروح قضيتهم العادلة ... فكان البذل والفداء .

يشتد البرد .. تلتهب النفوس ، فتترنح في مشيتها الأجساد وهي تحاول عبثاً أن تتقي البرد بالانطواء على نفسها .. وصاحبنا في سيره مازال .. تتسع خطواته وتسرع .. لا هم له غير همه الذي في رأسه ، لم يحس بلسعات برد فقد كان في صدره صقيع أشد .. لم يشعر بالضيق أو التعب لأن ما يحمله بين أضلعه يرتفع فوق كل شيء .

خطواته تتركز فى عقله .. قلقه كله يصب فى سؤال واحد فقط.. كيف يمكن لخطواته أن تقطع المسافة لتوصله إلى منزل خاله عبد الرحمن .. حتي يأتي بالرد .. فالإخوان فى انتظاره .. تركهم على أمل أن يعود بالرد .. وقد تفاءل كثيراً فى أن يكون موفقاً .. ولكن هل سيكون موفقًا حقًّا ؟! .. هل يستطيع أن يأتى بجواب تهدأ له نفوس الاخوة ويزيح قلق الصدور ؟!.. إنها مشكلة.

يا إلهى ... ماذا لو أن خاله العجوز خذله ؟!!.. لا.. لن يعطى فرصة للافتراضات أن تحبط من تفاؤله .. ثم إن ظروف خاله الأعزب تبشر بأنه لن يتردد كثيراً فى القبول .

ما برح البرد مستمراً فى عطائه، وغمر سماء الخليل بفيض من ماء المطر بسخاء شديد .. وكرم لا يعرف البخل .. ومازال بلال يحث الخطى ، فالمهمة تبدأ حلقاتها الأولى .. وهاهو فى أولى الخطوات فى زيارته لخاله عله يفوز فيها ... خفف من وطأة قلقه .. المهم الآن أن يجد خاله فى المنزل .. ترتسم ابتسامة عريضة على وجهه ، وقد تراءى لخياله صورة خاله المرح .. هذا العجوز الذى لم يذبل شبابه.. رفض الزواج لأنه رأى فيه قيوداً تحد من حريته .. وهو يحب أن يكون طليقاً كالعصفور.. بلا قيد أو مسئولية .. تتسع ابتسامته وهو يجد نفسه قد اقترب من الحارة التى يسكنها خاله ، فروحه المرحة الفالتة من كل القيود تنعكس ملامحها فى هذا الحى الشعبى .. أناس بسطاء لا تعرف الكلفة طريقاً إلى معيشتهم .. يقضون أيامهم تحت سقوف بالية يحسبونها القصور.. لقد سكن هذا الخال بعمق حتى سكنه الحى . فأصبحت

بيوت كل الحي بيتاً له .. ومطابخ كل البيوت مطبخًا له .

تزداد ابتسامته سعة وقد اقتربت به قدماه من القصد .. فلا يدرى لماذا فجأة قفز إلى ذاكرته ذلك الموقف .. تلك الزوبعة المضحكة التى اختلقها خاله عبدالرحمن لصديقه أسعد ، وأحد أبناء الحي ، عندما حاول مازحاً أن يثيره وناداه بالعم عبدالرحمن.. وهو الذى لا يقبل بغير اسمه وبدون أية ألقاب وهو يردد (هزيت في سريرك ياالملعون) فاكر نفسك صغير تنادينى بالعم (عمى الدبب) .

تذكر بلال جيداً ما دار بينهما من حوار مضحك ختمه خاله فى مشادة كادت ترتفع فيها الأيدى.. ولكن كان هناك طرفان فى المعركة طرف يهاجم بشدة وضيق ، وآخر يتقى هذه الهجمات بمرح وضحك شديدين .

انفرجت شفتاه فى ابتسامة مسموعة ، جاهد فى كتمها وهو يتصور موقف خاله وهو يكيل الصفعات للولد أسعد محاولاً تثبيت حقيقة زائفة بأنه مازال قويًا وقادراً وقد دعاه إلى منازلته كى يبطح يده فى لعبة (الرست) بينما غرق أسعد فى قهقهات عالية.. لم يسعه حيالها إلا أن يحمل نفسه بعيداً عن هذا العجوز وهو يترنح ضحكاً .

يقترب بلال من البيت ، ويزداد اقتراباً حتى يجد نفسه قد انتصب وجهًا لوجه أمام خاله ، والذى كان يحمل بين كفيه وعاء طعام كان قد خرج به مؤنة من بيت جاره .

وقبل أن ينطق بشىء ، إذا بخاله يطوقه بذراعيه القويتين وبحنان يتجه به صوب البيت وهو يهمس فى أذنه مبتسمًا :

– لندخل يا بلال قبل أن تفضحنى هفواتك .

ويقفلان خلفهما الباب .. نصف ساعة من الزمن مضت حتى انفتح الباب ليخرج بلال يرافقه خاله بوجه ملؤه الحماس .

– تذكر أنك وعدت .. وعلى هذا ستترتب أمور مهمة ياخالى ترفض الاستهتار !

رد خاله عليه قائلاً :

– اطمئن .. الخامسة مساء الغد إن شاء الله .

وامتدت يد بلال تصافح خاله بشدة ، وحذره مغبة التراجع مرة أخرى .. ثم مضى يحمل البشارة لإخوانه فى الجهاد بنفس رضية .

كانت الساعة الخامسة تماماً حينما وقف بلال بالشاحنة وترجل منها ، وبحركة سريعة أقفل الباب واقترب يطرق باب البيت .. ويعيد الكرة بعد الأخرى .. ثم ينتظر الثوانى ولا أحد يجيب .. يزيد من دقاته الحذرة ولكن لا أحد .. داخله الشك .. أيكون خاله قد وعد وأخلف .. بدأ الضيق يرتسم واضحاً على وجهه ، فبدأت دقاته يفلت عنها الحذر ، أعاد بلال الضربات .. ولم يمنع نفسه من أن يرفع صوته قليلاً .

– «افتح ياخال» .

لعله نائم .. حاول أن يخفف من شدة قلقه ، هاجمته الهواجس من هذا الخال الفالت من القيود .. هذا الرجل لا حساب للزمن عنده .. ينام متى شاء ويصحو عندما يريد .. تبًّا لتلك السمسرة التى يقتات بها قوته .. فقد عودته على حياة الكسل .. ماذا عساى أن أفعل ؟

يستدير بلال ويمسح بنظراته بيوت الحى المتصافحة بتراص

شديد ، ثم وبتفرس حذر.. كأنه يتوقع أن يفتح أحدها ليكشف الخال عن نفسه.. هل على أن أدق كل أبواب الحارة ؟

كلا لن أخلص من السؤال.. التفت مستديراً للمرة الألف نحو الباب .. ثم رفع يده ودق ضربات أودعها كل ضيقه، وفجأة آتاه الجواب ولكن ليس من داخل البيت .. برقت عيناه بالأمل وقد تسلل إلى مسامعه صوت يأتى من بعيد .

- من يطرق بيت عبد الرحمن ؟

- ألا يحق له أن يرتاح قليلاً .. ينتزع هذا الصوت البسمة رغم إرادة بلال ، يشد رباط الشال على رأسه ليحكم هيئته المتنكرة .. وأخيراً ؟ اقترب الصوت رويداً رويداً .. وما أن يتحقق الخال من الطارق حتى يهرول وهو يتمتم بكلمات الأسف والاعتذار.

- افتح ياخالى الله يسامحك وهمس وهما يدخلان البيت على عجل وقد ترك الباب فى نصف انفراج .

- جئت بالأمانة .. وعليك أن تساعدنى فى إخراج الصناديق من الشاحنة وبأقصى سرعة .

أحس الخال برعشة تثقل خطواته وهو يتبع ابن أخته صوب الشاحنة .. لكن ما أن وقع نظره على الشاحنة حتى تسمرت قدماه فى استقامة مخلخلة ثم هرع إلى داخل البيت ورمى نفسه على أقرب كرسى ..

لحق به بلال وعلامات السؤال واضحة على وجهه ...

- لقد قلت لى إنها قطعة سلاح خفيف .. كما أنى حسبت أن وسادتى من الممكن أن تغطيه إذا نمت.. وأراك اليوم تأتينى بشاحنة ممتلئة بصناديق من الأسلحة.. هذا لم يكن اتفاقنا ياابن اختى !

همس الخال وهو يرتعش خوفًا :

- وعلام الخوف .. كل مافى الأمر اثنا عشر صندوقًا .. ومن الممكن رصها فوق بعضها .. وعلى فكرة فالأمر يتساوى لدى العدو إن كنت تخفى قطعة واحدة أو ألف قطعة .

- خذ ياابنى شاحنتك وعد بها إلى أصحابك .. لقد أخطأت ظنًّا فأنا لا أملك سوى شجاعة اللسان .. وحتى هذه لا تتعدى شوارع هذا الحى الطيب .

كتمت المفاجأة أنفاس بلال .. فوقف فى ثورة صامتة ينظر إلى خاله .. وكأنما ينظر من قمة جبل .. فبدا له خاله صغيراً .. ضئيلاً .

أحس الخال فى تلك اللحظة أن غريباً لا يعرفه هو الذى يقف أمامه تقدح عيناه بشرر .. ولن يثنيه أى شيء عن قتل أبيه إذا اقتضت وطنيته .. فاهتزت أوصاله رعباً وهو يجلس كخائن ينتظر الإعدام .

كأن الزمان قد وقف بأثقاله على رأس بلال فى تلك اللحظة .. ولكن عليه أن يتصرف بحكمة .. فالوقت عامل مهم فى تقرير المصائر .. فالشاحنة فى الطريق وفضول المارة وتطفل الأطفال لا رادع لهما . وبحركة عصبية يستدير عائداً للشاحنة دون أن ينبس ببنت شفة .. يصفق الباب خلفه كاتماً غيظه وسرعان ما تحرك بالشاحنة .

يتنفس الخال الصعداء بعد أن تأكد أن الشاحنة توارت تماماً عن الأنظار .. خرج إلى الشارع بخطوات ثقيلة وكأنها قد شدت إلى الأرض .. أتاه صوت مازح يحاول استثارته من بعيد .. ولكنه ولأول مرة لم يرد ولأول مرة بدا الخال مهموماً مشغول البال ..

سأتجه إلى طريق الساحل ! هكذا قرر بلال وبدون تردد ، فالطريق هناك طويل .. وربما قطع الوقت المطلوب .. قد تتناثر

دوريات العدو إلا أنهـا فى أغلب الظن لن يداخلهـا الشك .. فهـذه الشاحنة الملغمة لا تبدو أكثر من ناقلة خضـار.. كما أن هيئتى لا تدل على أكـثـر من مـزارع أمى.. حـاول بلال أن يزرع الأمـان فى نفسـه ويخـفف من قلقـه .. وقـرر أن يكون فى أقـصى درجـات الحذر.. فلن ينقذه من هذا المأزق غير عقل شجاع .. بين يديه أمانة الوطن .. أمانة موثوقة بكلمة شرف وروح العرفان بالجميل الذى يموج مع كل قطرة دم تجرى في عروقه ..

التهبت مشاعره حماساً ، وامتلأ صدره بحب الوطن حتى صغرت أمامه نفسه وهانت .

واصل السير بعقل راسخ لحساب الزمن والمسافة ، وبنفس راسية بقناعة موقفها الإستشهادى إذا ما حانت الساعة . إلا أن ذلك لم يمنع تلك الافتراضات التى راحت تشغل باله وتجوب رأسه.

تحركت عيناه بتركيز لا يعرف الكلل .. تفحص ما مر من السيارات أمامه .. وتلك التى تتبعه من الخلف .. وغيرها مما وقف على قارعة الطريق لسبب ما .. يجب أن يعرف كيف يحتاط للمواقف فى وقت مبكر .

تبًّا لك يا خال !.. لن أتركك تفلت من يدى هكذا وبدون عقاب . سيكون لى حديث معك . يواصل السير وبحذر شديد .. يخيل له دورية تقتفيه ، ومن على بعد بعيد .. يمعن النظر.. ويشتد تأهباً للموقف .. ولكن سرعان ما تمر هذه وتتجاوزه بسرعة البرق .. يتنفس الصعداء .. ينظر إلى الساعة . يشعل سيجارة ، يأخذ نفساً بهدوء مشحون بالقلق . يقلب نظراته يمنة ويسرة .. أمامه والخلف . لاشيء يريب حتى الآن يطمئن بعض

الشيء .. ولكن اطمئناناً لا يخلو من الحيطة والحذر.

اللعنة أيها الخال .. يتنفس بعمق.. كم هو مؤسف ألا تحمل النفس معروفًا للأرض التى تفرش صدرها لنمشى بأقدامنا عليها !

وفجأة يرى من على بعد نقطة مرور عسكرية مكثفة ...! ماذا على أن أصنع ؟!! إذن هى الساعة لا محالة .. تشتد نبضات قلبه.. تتقلص عضلات يديه وهو يمسك بدفة الشاحنة ، ولكنه يلتزم الهدوء ويصطنعه بإتقان على ملامحه .

- توقف !

أمره الجندى وهم بخطوات مستهترة يتحرك نحوه وقد حمل فى يد الرشاش وترك الأخرى طليقة تصدر أوامرها إشارات .. تفرس فى هيئته ثم قلب نظراته فى الشاحنة وأمره بالنزول من الشاحنة ويداه خلف ظهره . تتسع حدقتا عينى بلال وهو يرى جنود العدو يتحلقون حول الشاحنة.. شعر بالفرح وامتدت يده استعداداً للتفجير وقد عقد العزم .. فلن تطول يد المستعمر هذه الأمانة .. هى ساعة الصفر الموعودة .. لا محالة أيها العدو..

واشتد إيمانه بالفداء ، وانقلب إلى حال من الهدوء التام .. ذلك الهدوء الذى دائماً ما يسبق العاصفة .. نفسى فداك يا فلسطين . واشهدى أيتها السماء أننى على الأمانة أمين .

تجمد بلال فى مكانه وكأنه فى حلم لا يستطيع أن يستوعب واقعه .. وأدرك بأنها ساعة موت كشفت عن نفسها ولن تتراجع .

وانتظر حتى تحلق الجميع حول الشاحنة والتقط آخر نفس بعمق شديد ولمعت عيناه بالفرحة وارتسمت ملامح الاطمئنان على وجهه.. وفجأة تناثرت وتطايرت أشلاء من شدة الانفجار .

الفهرس

المؤلف

- **ثريا نـافـع**
- **صدر لها :**

ـ تأملات فى الحياة والناس (فلسفى) . دار بيروت للنشر ١٩٧٨ .
ـ باقة زهور على قبر الحب (مجموعة قصصية) . دار الشرق للطباعة ١٩٩٤ .
ـ أبواب مغلقة (مجموعة قصصية) . دار الحضارة ١٩٩٨ .
ـ كلمات إلى مجهول (وجدانيات) . دار الحضارة ١٩٩٩ .
ـ خاتمى رؤية مختلفة . دار الشرق للطباعة ٢٠٠٠ .
ـ الطب الرياضى (مترجم عن الإنجليزية) . مركز الكتاب للنشر ١٩٩٩ .

- **تحت الطبع**

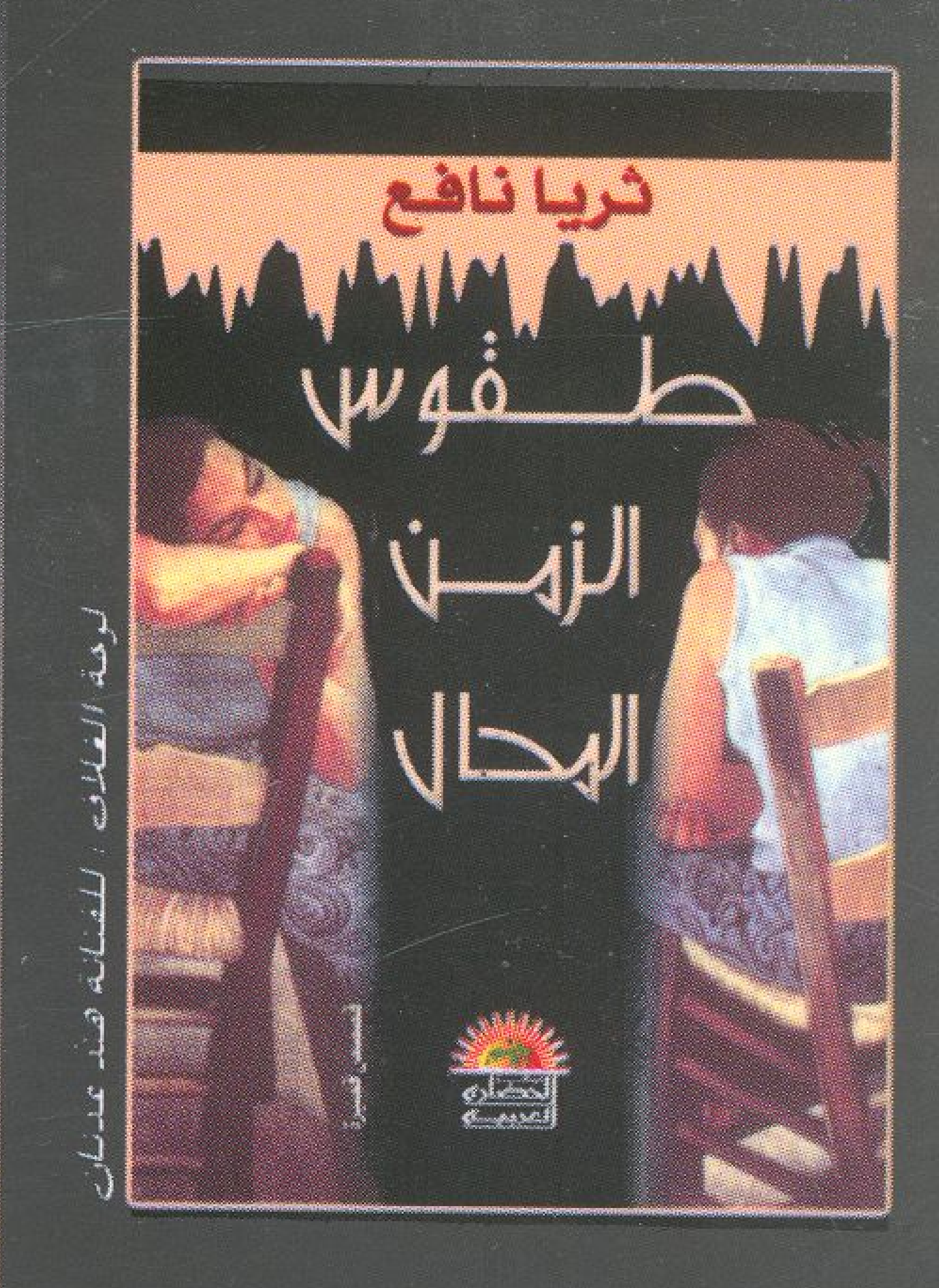
١ ـ المساج خطوة خطوة (مترجم عن الإنجليزية) .
٢ ـ متاهات (١) (مجموعة مقالات) .

من قائمة الإصدارات الأدبية

العنوان	المؤلف	العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	المتعبون	جمعة محمد جمعة
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين	دموع إيزيس	حسنى لبيب
الهاجس	أحمد بدران	بالمقلوب	د. حمدى حمودة
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
سريب	أحمد الفيتورى	الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
ظل باب	أحمد محمد حميدة	أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
وقائع غرق السفينة	إدريس علي	يومية هروب	خيرى عبد الجواد
واحد ضد الجميع	إدريس علي	مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
المبعدون	إدريس علي	العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
طريق النسر	إدوار الخراط	حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
صخور السماء	إدوار الخراط	حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط	الحدود	رأفت سليم
يقين العطش	إدوار الخراط	الطريق والعاصفة	رأفت سليم
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	في لهيب الشمس	رأفت سليم
متى تتزوجنى ؟!	أشرف خليل	اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
الهيش	أشرف العوضى	أنا ونورا وماعت	رفقي بدوي
حذاء السيد المنسى	أشرف العوضى	سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر	شجرة الخلد	سعد القرش
لا أحد يحبك	أمانى فهمى	تائهون فى الحياة	سعدية البياتى
همس العاشقين	أمين بكير	شهقة	سعيد بكر
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	حبيبى يا ناس	سليمان كابو
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب	أرجوحة	سمير الفيل
مأساة أسرة	أمين العزب	ظل الحجرة	سمير الفيل
أشياء خاصة جدا	أمينة العمادى	قطار الساعة ١٢	السيد الشوربجى
الخيول الشاردة	بهى الدين عوض	أيام هند	سيد الوكيل
قبل وبعد	توفيق عبد الرحمن	كف مريم	سعيد سالم
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى	سفر الموت	شاطبى يوسف ميخائيل
مطرية الغروب	جمال الغيطانى	الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
الرقص على حافة الجرح	جمال فايز	دردانين	عاشور الطويبى

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



نظرت نور إلى نضال وشع النزف داخلها
أصدافًا ملونة كشفت عن مناطق الغموض
بشفافية بالغة وكأنها ترى نهاية قريبة،
إنه حدسها المتشائم الذي لم يخذلها …

- يا حبيبتي نحن شعب لا وقت لـ…
فواجب تحرير الأرض أثقل كاهلنا …
بعيد.

- ومن قال بأن قوافل حياتنا …
تغلق نوافذها أمام الحب، لو لم يكن …
لما كانت هناك تلك العلاقة الدائمة …
الذي يقطر عسلاً فوق القلوب لأرض يسقيها
أبناؤها كل يوم دماء طاهرة غير مبالين بالموت،
كاشفين صدورهم أمام العدو لا يحميهم سوى
إيمانهم بنصر قريب...

مركز الحضارة العربية